غوستاف لوبون

روح الثورات

ترجمة: عادل زعيتر

هنداوي
هنداوي للنشر

عنوان الكتاب: روح الثورات
الكاتب: غوستاف لوبون
المترجم: عادل زعيتر

ضمّة للنشر والتوزيع
سيدي عيسى ولاية المسيلة
البريد الالكتروني: dammah.nashr@gmail.com

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لدار ضمّة للنشر
والتوزيع. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

كتبنا متوفرة على Telegram
t.me/DammahPublishing

الباب الأول
صفات الثورات

الفصل الأول

الثورات العلمية والثورات السياسية

(ا) تقسيم الثورات

يعبرون عادة عن الانقلابات السياسية بالثورة. مع أنه يقتضي أن تعرِب هذه الكلمة عن جميع التحولات الفجائية للمعتقدات والأفكار والمذاهب.

وقد بحثنا في كتاب آخر عما لعناصر العقل والمشاعر والتدين من الشأن في تكوين الأفكار والمعتقدات التي يتوقف عليها سير الإنسان، ولا فائدة من الرجوع إليها مرة أخرى.

قد ينتج عن الثورة في نهاية الأمر معتقد، ولكنها تنشأ في الغالب عن عوامل عقلية كالقضاء على ظلم فادح أو استبداد ممقوت أو ملك يبغضه الشعب، ومع أن العقل هو أصل الثورة فإن الأسباب التي تهيئها لا تؤثر في الجماعات إلا بعد أن تتحول إلى عواطف، فإذا أمكن بالفعل إظهار ما يجب هدمه من المظالم وجب لتحريك الجماعات إفعام قلوبها بالآمال، وهذا أمر لا ينال إلا إذا

استعين بعناصر العاطفة والتدين التي تجعل الإنسان قادرًا على السير، خذ الثورة الفرنسية مثلًا ترَ أن المنطق العقلي الذي تذرع به فلاسفة ذلك العصر أظهر للملأ مساوئَ النظام القديم وجعل في القلوب ميلًا إلى تبديله، وأن المنطق الديني ألقى في النفوس إيمانًا بفضائل مجتمع قائم على بعض المبادئ، وأن المنطق العاطفي أطلق النفوس من عقالها القديم وشدَّ قواها، وأن منطق الجماعات استحوذ على الأندية والمجالس ودفع أعضاءها إلى اقتراف أعمال لم يدفعهم المنطق العقلي والمنطق العاطفي والمنطق الديني إلى اقترف مثلها.

والثورة — مهما كان مصدرها — لا تصبح ذات نتائج إلا بعد هبوطها إلى روح الجماعات، فالجماعة تتم الثورة ولا تكون مصدرها، وهي لا تقدر على شيء ولا تريد شيئًا إن لم يكن عليها رئيسٌ يقودها، ولا تلبث الجماعات أن تجاوز الحد الذي حُرِّضت عليه، وإن كان التحريض لا ينشأ عنها أبدًا.

وإن الثورات السياسية الفجائية التي تعجب المؤرخين هي أقل أهمية من غيرها في بعض الأحيان، فالثورات الكبيرة هي ثورات الطبائع والأفكار.

وفي الغالب تتم الثورات الحقيقية التي يتوقف عليها مصير الأمم بالتدريج، وهذا ما يجعل المؤرخين يلقون مصاعب في تعيين بداءتها، ولذلك نرى كلمة التطور أصح في التعبير عن المقصود من كلمة الثورة.

لا تصح العناصر المختلفة، التي ذكرنا عملها في تكوين أكثر الثورات، أن تكون أصلًا لتقسيمها، ولكننا إذا نظرنا إلى الثورة من حيث غايتها فقط أمكننا تقسيمها إلى ثورات علمية وثورات سياسية وثورات دينية.

(٢) الثورات العلمية

الثورات العلمية من أكبر الثورات أهمية، ومع أنها لا تستوقف النظر كثيراً هي، في الغالب، ذات نتائج بعيدة لا تأتي بمثلها الثورات السياسية.

فَسرٌّ تحوّل الصورة التي ننظر بها إلى الكون منذ عصر النهضَة هو أن الاكتشافات الفلكية والطرق القائمة على التجربة والاختبار أورثت نفوسنا ثورة بإثباتها أن الحوادث تصدر عن سنن ثابتة لا تتبدل، لا عن أهواء الآلهة.

والأجدر أن تدعى هذه الثورات بالتطور لبطء وقوعها، بيد أنه يوجد من نوعها ثورات أخرى تقعِ بسرعة وتستحقَّ أن تدعى بالثورات، مثال ذلك آراء داروين التي قلبت علم الحياة في بضع سنين رأسًا على عقب، واكتشافات پاستور التي حولت علم الطب في أيام صاحبها، والرأي في انحلال المادة الذي أثبت أن الذرة لا تشذ عن السنن القاضية على جميع عناصر الكون بالزوال والفناء خلافًا لما كان يُظنَّ.

وبما أن مجال هذه الثورات هو عالَم الأفكار فإنه ليس للمشاعر والمعتقدات سلطانٌ عليها، وعلى المرء أن يعانيها من غير أن يجادل فيها.

(٣) الثورات السياسية

نذكر — بعد الثورات العلمية التي هي سرّ تقدم الحضارة — الثورات الدينية والثورات السياسية وإن كانت بعيدة منها ولا تربطها بها رابطة، فالثورة العلمية لا تشتق إلا من العقل مع أن المشاعر والعواطف هي دعائم المعتقدات السياسية والدينية، ولا يكون للعقل سوى شأن ضئيل في تكوينها.

لقد أثبتُّ في كتاب «الآراء والمعتقدات» أن المعتقد السياسي والديني هو إيمان أينع في عالم اللاشعور من غير أن يكون للعقل سلطان عليه، وبيّنت فيه أن المعتقد قد يكون أحيانًا من القوة بحيث لا يقوم في وجهه شيء، وأن المرء الذي استحوذ عليه إيمانه يصبح رسولًا مستعدًّا للتضحية بمنافعه وسعادته وحياته في سبيل نصره، وأنه لا أهمية لمخالفة هذا الإيمان للعقل والصواب بعد أن يكون حقيقة في نظر صاحبه، فالحق أن للعقائد الدينية قوة عجيبة في تغلبها على الأفكار، وفي أنها لا تتبدل إلا بتبدل الأزمان.

واعتبار المؤمنين المعتقد حقيقة مطلقة يجعلهم غير متسامحين بحكم الضرورة، وهذا يوضح لنا سر قسوتهم وأحقادهم ومظالمهم أيام الثورات السياسية

والدينية الكبيرة، ولا سيما أيام ثورة الإصلاح الديني والثورة الفرنسية.

وتظلُّ بعض أدوارنا التاريخية سرّا إن جهلنا منشأ المعتقدات العاطفي والديني وعدم تسامحها الضروري واستحالة التوفيق بينها، ثم ما تُنعم به المعتقدات الدينية على المشاعر المسخَّرة لخدمتها من القوة.
وتلك المبادئ حديثة العهد بعيدة من تغيير عقلية المؤرخين الذين سوف يستمرون على اعتبار كثير من الحوادث صادراً عن المنطق العقلي، فمع أن الإصلاح الديني الذي قلب فرنسة مدة خمسين سنة وما ماثله من الحوادث لم ينشأ عن عوامل عقلية لا يزال أكثر المتأخرين من العلماء يعزون هذه الوقائع إلى العقل، مثال ذلك الإيضاح الذي أوضح به مسيو لاڤيس ومسيو رانبو ثورة الإصلاح الديني في كتابهما «التاريخ العام»، إذ قالا:

إن ثورة الإصلاح الديني حركة غريزية تولدت في نفوس القوم من مطالعة الإنجيل ومن تأملات فردية أورثها قلوب البسطاء عقل مقدام.

فالحقيقة هي غير ما زعم هذان المؤرخان، فهذه الثورة لم تنشأ عن الغريزة ولم يكن للعقل تأثير في نضجها، وإنما خرجت — كغيرها من المعتقدات السياسية والدينية التي قلبت العالم — من المشاعر وخلق التدين.

حقًّا إن مصدر المعتقدات — سياسية كانت أو دينية — لمشترك، وهي خاضعة لسنن واحدة، أي أنها لا تتكون بالعقل، وكثيرًا ما تتكون خلافًا لما يقتضيه العقل، فالبدهية (البوذية) والإسلام والإصلاح الديني واليعقوبية والاشتراكية، وإن لاحت على شكل فكريٍ ظاهر، هي بالحقيقة قائمة على عواطف وتدينات متماثلة، وتخضع لمنطق لا علاقة بينه وبين المنطق العقليَ أبدًا.

تنشأ الثورات السياسية عن معتقدات تأصلت في النفوس، ولكنها قد تنشأ عن أسباب أخرى تجمعها كلمة الاستياء، فمتى عمّ هذا الاستياء تألف حزب قادر على مكافحة الحكومة.

ويقتضي أن يتراكم الاستياء ليكون ذا نتائج، ولهذا لا تكون الثورة في الغالب حادثة لم تلبث أن تنتهي حتى تعقبها ثورة أخرى، بل هي حادثة مستمرة أسرعت في نشوئها قليلًا.

وعندنا أن الأمم الكثيرة المحافظة هي التي تأتي بأشدِّ الثورات خلافًا لما يظن بعض الناس؛ لأنها إذ كانت محافظة غير متحولة ببطء لتلائم تقلب البيئات تكره على ملاءمتها بغتة بالثورة حينما تصبح الشُّقَّةُ بين الطرفين عظيمةً جدًّا.

ولا مفرّ للأمم التي تلائم تقلُّب البيئة بالتدريج من الوقوع في الثورات، فلم ينجح الإنكليز، سنة ١٦٨٨،

في ختم النزاع الذي استمر قرنًا بين العرش الذي كان يرغب أن يكون مطلقًا وبين الشعب الذي كان يسعى أن يكو ن محكومًا من نوابه إلا بالثورة، وخاصة الأمة، لا عامّتها، هم الذين يبدأون بالثورات في الغالب، ولكن الثورات تستمد قوتها من الشعب عندما يهيج، وقد لا تتم الثورات إلا إذا دعمها فريق كبير من الجيش، فلم تأفُل الملكية في فرنسة يوم قطع رأس لويس السادس عشر، بل يوم امتنع جندُه عن الدفاع عنه.

وقد تزول المحبة بالعدوى النفسية من الجيوش التي لا تكترث لسير الأمور إلا قليلًا، فعندما استطاع بضعة ضباط أن يقلبوا الحكومة التركية فكَّر ضباط اليونان في تقليدهم بتغيير الحكومة، مع أنه لم يكن شَبَهٌ بين النظامين.

وقد يمكن تغيير الحكومة بحركة عسكرية، وذلك كما يقع في الجُمهوريات الإسبانية، ولكن مثل هذه الثورات لا تكون ذات نتائج مهمة إلا إذا صدرت عن استياء عام وآمال كبيرة، والاستياءَ، إذا لم يكن عامّا شديدًا، لم يكف لإحداث الثورات المجدية، فمن الأمور السهلة أن تحرض شرذمة من الناس على النهب والهدم والقتل، ولكنه يجب لتحريك الأمة كلِّها أو معظمها أن يبالغ الزعماء في تجسيم الاستياء وأن يَحْملوا الساخطين على اتهام الحكومة بأنها سبب الحوادثَ السيئة، ولا سيما الفاقة والغلاء، وأن يجعلوا الجمهور يعتقد أن عصر السعادة سينبثق على الناس من النظام الجديد الذي

يقترحونه، فمتى تأصلت هذه الأمور في النفوس وانتشرت بالتلقين والعدوى قرب الوقت الذي تنضج فيه الثورة.

فعلى هذا الوجه نشأت الثورة المسيحية والثورة الفرنسية، وإذا كانت الأخيرة قد وقعت في سنين قليلة، وتطلَّب وقوع الأولى كثيراً من السنين، فلأن الثورة الفرنسية لم تلبث أن دعمها الجيش مع أن الثورة المسيحية لم تنل قوة مادية إلا بعد انقضاء زمن طويل، فالأصاغر والسِّفْلةُ والعُبّدان هم الذين كانوا أنصار المسيحية في البداءة، ومنهم سرت عدواها إلى الخاصة، ولما كمل انتشارها بين هؤلاء أيضًا رأى أحد الأباطرة اتخاذها دينًا رسميًا للدولة، وهذا كله لم يتم إلا في وقت طويل.

(٤) نتائج الثورات السياسية

بعدما يتم النصر لحزب ينظم هذا الحزب المجتمع كما تقتضيه مصالحه، فيسن القوانين، ويضع الأنظمة على حسب منافعه ومنافع الطبقات التي ساعدته على الغلبة، كطبقة الإكليروس مثلًا، وإذا تم النصر للغالبين بعد مصارعات عنيفة، كما وقع أيام الثورة الفرنسية، فإنهم يقوضون دعائم الحقوق القديمة مع اضطهادهم أنصار النظام الساقط وإخراجهم من ديارهم وإبادتهم.

ويبلغ التعذيب غايته حينما يدافع الحزب الغالب عن معتقد، عدا دفاعه عن منافعه المادية، فلا

يعامل الحزب المغلوب بالرحمة، بل يطرده من البلاد كما طُرد العرب من الأندلس، ويقضي عليه كما قضت محكمة التفتيش على الخوارج بالإحراق، ويمعن في قتله كما حدث في دور العهد، ويسن القوانين ضده كالقوانين الحديثة التي وضعت ضد اليسوعيين.

وقد يتمادى الغالب في الظلم فيأمر أن يقوم الورق مقام الذهب، وأن تباع السلع بأثمان بعينها كما يهوى، إلا أنه لا يلبث أن تصدمه الضرورات التي تحوِّل الرأي العام ضد استبداده، وذلك كما حدث في أواخر الثورة الفرنسية، وكما وقع لوزارة اشتراكية أسترالية مؤلفة من العمال، فقد وضعت هذه الوزارة قوانين عقيمة ومنحت المنتسبين إلى النقابات امتيازات كثيرة فسخط الرأي العام عليها فسقطت في ثلاثة أشهر.

والأحوال المذكورة استثنائية، فأكثر الثورات قد وقع ليجلس على العرش ملك جديد، فليعلمْ هذا الملك أن استمرار حكمه لا يكون بتفضيله طبقة على أخرى، بل باستمالته الطبقات كلها إليه، وهو لا ينال ذلك إلا إذا وازنها موازنة مانعة من تغلب إحداها عليه، فإذا ساعد على تفوق طبقة دون أخرى لم تلبث هذه الطبقة أن تصبح سيدته، وهذه سُنَّةٌ من أصح سنن السياسة، وقد علمها ملوك فرنسة عندما كانوا يكافحون تطاول الأشراف في البداءة ثم الإكليروس من بعدهم، ولولا ذلك لكان نصيبهم مثل نصيب أباطرة الألمان في القرون الوسطى

حين كانوا يضطرون — كما فعل الإمبراطور هنري الرابع — إلى زيارة البابوات ليطلبوا العفو عنهم بتذلل.

وقد ثبتت صحة هذه السَّنَّة في جميع أدوار التاريخ، فلما تفوقت طبقة الجند في أواخر الدولة الرومانية أصبح الأباطرة تحت إمرة جنودهم فصار هؤلاء يرفعونهم على العرش أو يخلعونهم كما يشتهون.

إذن، إن من حسن حظ فرنسة أن ظل على رأسها زمنًا طويلًا ملوك مطلقون مدعون أن سلطانهم مستمد من الله، فلولا ذلك ما استطاعوا أن يقبضوا على زمام الأشراف والإكليروس والبرلمان معًا، ولو كان على رأس پولونية في أواخر القرن السادس عشر ملوك مطلقون محترمون مثل ملوك فرنسة ما هبطت إلى منحدر الانقراض الذي أوجب محوها من خريطة أوربة.

بينا في هذا الفصل أنه يمكن أن ينشأ عن الثورات السياسية انقلابات اجتماعية عظيمة الشأن، وسنرى أن هذه الانقلابات تظهر ضعيفة عندما تقاس بالانقلابات التي تنشأ عن الثورة الدينية.

الفصل الثاني

الثورات الدينية

(ا) البحث في الثورات الدينية ينفع للوقوف على الثورات السياسية الكبرى

سنخصص جزءًا من هذا الكتاب للبحث في الثورة الفرنسية الحافلة بالمظالم الناشئة عن عوامل نفسية.

هذه الثورة الشاذة تفعمُ القلوب حيرة، ويلوح للناظرة غموضٍ أمرها مع أن سرها يتجلى عند اعتبارها دينًا جديدًا تابعًا لنواميس انتشار المعتقدات.

فسوف نرى، عندما نبحث في ثورة الإصلاح الدينيَ الكبرى، أن ما شوهد في أيامها من الأحوال النفسية شوهد مثله أيام الثورة الفرنسية، فقد رئي في هاتين الثورتين أن شأن العقل ضئيل في انتشار المعتقد، وأن الاضطهادات فاقدة التأثير، وأن تسامح المعتقدات

المتباينة مستحيل، وأن أشد المظالم والملاحم يصدر عن تصادم العقائد المختلفة، وأنه يستحيل تبديل عقيدة الناس قبل تبديل كيانهم.

فبعد أن يثبت عندنا ذلك كله ندرك السبب في انتشار إنجيل الثورة الفرنسية وَفقَ الطرق التي انتشرت بها الأناجيل الدينية الأخرى، ولا سيما إنجيل كالْڤن.

وإذا وجد شبهٌ شديد بين تكوين الثورات الدينية، كثورة الإصلاح الديني، وتكوين الثورات السياسية، كالثورة الفرنسية، فإن هنالك فرقًا ظاهراً بين نتائجهما، وهذا الفرق يوضح لنا السرّ في تفاوت دوامهما، وبيان ذلك: أنه ليس في الثورات الدينية تجربة تثبت للمؤمنين ضلالهم؛ لأن ذلك يستدعي اطلاعهم على ما في اللوح المحفوظ، وأما الثورات السياسية فإن تجربتها لم تلبث أن تثبت ما في المذاهب السياسية من الخطأ والضلال فيضطر الناس — إذ ذاك — إلى تركها، فعلى هذا الوجه اضطر أشد اليعاقبة تعصباً إلى العدول عن طريقتهم عندما رأوا في أواخر عهد الديركتوار أن تطبيق المعتقدات اليعقوبية أوجب إشراف فرنسة على الخراب والشقاء، ولم يدُم من نظرياتهم سوى بضعة مبادئَ يصعب تحقيق أمرها، كمبدأ السعادة القائل: إن المساواة أساس سعادة الناس.

(٢) أنصار الإصلاح الديني الأولون

انتهت ثورة الإصلاح الديني بعدما اشتد تأثيرها في عواطف الناس ومبادئهم الأدبية، وهذه الثورة الصغيرة الشأن في بداءتها كانت تتجلى في انتقاد تصرف الإكليروس الممقوت وفي دعوة الناس إلى العمل بنصوص الإنجيل، لا في دعوتهم إلى حرية الفكر، فقد كان كالڤن غير متسامح كروبسپير، وكان رجال النظر يقولون إنه يجب على الرعية أن تكون على دين ملوكها، وهذا ما وقع فعلًا، ففي البلاد التي عمها الإصلاح الديني حل الملوك محل البابا حقوقًا وسلطانًا.

وقد انتشر الإيمان الجديد ببطء في فرنسة في بدء الأمر؛ لعدم علانيته وفقدان وسائل إذاعته، فلم ينضم إلى لوثر، سنة ١٥٢٠، سوى بضعة أشخاص، ولكن لما كثر أنصاره، سنة ١٥٣٥، رُئي أن إحراقهم أمر ضروري.

وسهّل الاضطهاد انتشار الإصلاح الديني تبعًا للسنة النفسية المعروفة، وكان أول المؤمنين به القساوسة والقضاة وأهل الحرَف، وقد تم إقبالهم عليه بالعدوى النفسية والتلقين.

ومن المشهود أنه عندما يشيع معتقد جديد بين الناس يلتف حوله رجال لا يهمهم من أمره سوى أنهم يرون فيه وسيلة لإرواء شهواتهم وأطماعهم، وقد وقع ذلك أيام الإصلاح الديني في بلدان كثيرة، ولا سيما في

ألمانية وإنكلترة، فلما قال لوثر إنه لا حاجة للإكليروس بالمال وجد أمراءَ ألمانية الدين الذي يعدُهم بالاستيلاء على أموال الكنيسة دينًا طيبًا نافعًا.

(٣) قيمة ثورة الإصلاح الديني العقلية

قلبت ثورة الإصلاح الديني أوربة، وكادت تدمِّر فرنسة بتحويلها إياها مدة خمسين سنة إلى ساحة حرب، وما أتته من النتائج العظيمة لم تأت مثله أية حادثة تعدلها من حيث قلة قيمتها العقلية.

والأدلة على أن المعتقدات تنتشر بعيدة من العقل كثيرة، وما أقام النفوس وأقعدها من المذاهب اللاهوتية أيام ثورة الإصلاح الديني، ولا سيما مذهب كالڤن، لا يستحق أن يبحث عنه من جهة المنطق العقلي.

فلوثر الذي همه أمر سعادته الأبدية وخاف من الشيطان خوفًا لم يقدر كاهنه على إزالته كان يبحث عن أقوى الوسائل التي يُرضي بها الله ليتقي جحيمه، وبعد أن شرع في إنكار حق البابا في بيع المغفرة رفض ما له ولكنيسته من السلطان رفضًا تامًّا، وأنحى باللائمة على الطقوس الدينية والاعتراف وعبادة القديسين وصرّح بأنه لا يجوز للنصارى أن يتبعوا غير ما جاء في الكتاب المقدس، ثم قال إن النجاة الأبدية لا تكون إلا بفضل الله وكرمه، ولم يحدد لوثر «نظرية المشيئة الأزلية» هذه تحديدًا تامًّا، وقد عرّفها كالڤن بأوضح من ذلك فجعلها أساس مذهب لا يزال أكثر البروتستان تابعين له، فعند

كالڤن « أن الله اختار من الأزل أناسًا للنار وآخرين للجنة» وكان جوابه وقتما سئل عن علة هذا الظلم «أن الله أراد ذلك»، وهكذا رأى كالڤن، الذي لم يفعل سوى إيضاح زعم القديس أوغوستن، أن الله القادر على كل شيء يَعْنَى بخلق أناس ليكونوا خالدين في النار غير مبال بأفعالهم وفضائلهم، ومما يستوقف النظر أن تستولي هذه الغباوة الفكرية على النفوس زمنًا طويلًا، وأن تظل مستحوذة على كثير من الناس حتى الآن.

وهنالك شبه بين نفسية كالڤن روبسپير، فكان الأول كالثاني أستاذًا غير متردد في قتل من لم يكن على مذهبه، وكان يقول: «إن الله يريد أن تطرح الرأفة والإنسانية جانبًا عند الجهاد في سبيله».

ونستدل من حالة كالڤن وأنصاره على أن المتناقضات تلتئم في أدمغة المؤمنين، فيستحيل من حيث المنطق العقلي أن نثبت أخلاق على مبدأ «المشيئة الأزلية» القائل إن بعض الناس ناجون وبعضهم معذبون، مهما كانت أفعالهم، ومع ذلك لم يَلْقَ كالڤن صعوبة في إبداع أخلاق قوية قائمة على أساس غير منطقي.

(٤) انتشار الإصلاح الديني

لم ينتشر هذا الإيمان بالخطب والبراهين العقلية، بل بالعناصر التي بحثنا عنها في كتابنا السابق، أي بالتوكيد والتكرار والعدوى النفسية والنفوذ، وقد انتشرت

الأفكار الثورية بعد ذلك في فرنسة على هذه الطريقة أيضًا.

وساعد الاضطهاد على هذا الانتشار، إذ نشأ عن كل حادثة قتل دخول أناس في المذهب الجديد، فلما سيقَ القاضي المحكوم عليه بالإحراق، إندنبرغ، إلى النار سار إليها وهو يحث الجماعة على اعتناق مذهبه، وقد قال أحد الرواة إن عدد البروتستان زاد بين طلاب المدارس بفعل جلده وصبره أكثر مما بكتب كالقن.

وكانوا يقطعون ألسنة المحكوم عليهم بالإحراق خوفًا من أن يخاطبوا القوم، وقد زاد التعذيبَ هولًا تقييدُ الضحايا بسلاسل من حديد؛ لإدخالهم في النار وإخراجهم منها مرات كثيرة.

كل ذلك لم يثن البروتستان عن مذهبهم الجديد مع أنهم كانوا يوعدون بالعفو بعد أن تمسهم النار.

ولما عدل فرنسوا الأول عن تسامحه سنة ١٥٣٥ أمر بإضرام الوقيد في ستة مواقد في باريس، وقد اكتفى رجال العهد بمقصلة واحدة فيها كما هو معلوم، وقد ظهر أن العذاب لم يكن أليمًا عند المؤمنين، حتى إنه شوهد قبل ذلك عدم شعور شهداء المسيحية بالعذاب لتنويمه إياهم، ومن المسائل المعروفة في الوقت الحاضر أن بعض طرق التنويم تبطل الحس تمامًا.

والخلاصة: أن انتشار ذلك المذهب كان سريعًا، ففي سنة ١٥٦٠ أصلحت ألفا كنيسة في فرنسة وانتحله كثير من الأمراء الذين كانوا لا يبالون به إلا قليلًا في بدء الأمر.

(٥) تصادم المعتقدات الدينية واستحالة التسامح

ذكرت غير مرة أن عدم التسامح يلازم المعتقدات القوية، والثورات الدينية والسياسية الدالة على ذلك كثيرة، وقد أثبتت هذه الثورات أن عدم التسامح بين أنصار المعتقدات المتقاربة يكون أشد مما بين أنصار المعتقدات المتباعدة كالإسلام والنصرانية مثلًا، فإذا نظرنا إلى المعتقدات التي شطرت فرنسة زمنًا طويلًا رأيناها لا تختلف إلا في الأمور الثانوية، فالكوثوليكي والپروتستاني إلههما واحد ولا يختلفان إلا في كيفية عبادته، ولو كان للعقل شأن في صوغ معتقدهما لأراهما أن الله لا يبالي بالصورة التي يعبد عليها.

ولما كان العقل غير مؤثر في دماغ المؤمنين استمر البروتستان والكاثوليك على الاقتتال بقسوة، وما سعى فيه الملوك للتأليف بين الفرقتين ذهب أدراج الرياح، وقد ذهب عن بال كاترينا دومديسيس أن التسامح — وإن أمكن بين الأفراد — لا يكون بين الجماعات، فعندما جمعت علماء اللاهوت خاضوا غمار المناقشة والشتم من غير أن يحيد واحد منهم عن عقيدته، ثم رأت، سنة

١٥٦٢، أن نشرها مرسومًا تمنح فيه البروتستان حق الاجتماع والعبادة جهرًا أقرب إلى النجاح.

وهذا التسامح، الحسن نظريًّا والسيئ عمليًّا، لم ينشأ عنه غير إيغار صدور رجال الحزبين، فاضطهد البروتستان الأقوياء في جنوب فرنسة الكاثوليك لكي يترك هؤلاء عقيدتهم، وكانوا يذبحونهم وينهبون كنائسهم عندما يحبط عملهم، وقد أصاب البروتستانَ نظيرُ ذلك في الأمكنة التي كانت الأكثرية فيها للكاثوليك.

وقد نشأ عن مثل هذه الأحقاد حروب دينية ضرّجت فرنسة بالدم زمنًا طويلًا، فمدنها دُمّرت والدماء سُفكت، ولسرعان ما اتصف هذا النزاع بالقسوة الوحشية الخاصة بالوقائع الدينية والسياسية.

أُبيد الشيوخ والنساء والأطفال، وصار رئيس برلمان إكس البارون دوبيد مثالًا يقتدى به لقتله في عشرة أيام ثلاثة آلاف شخص وتدميره ثلاث مدن واثنتين وعشرين قرية، وكان مونلوك يطرح أتباع كالڤن في الآبار حتى تمتلئ، ولم يفعل البروتستان أقل من ذلك فكانوا يعتدون على الكنائس الكاثوليكية ويتطاولون على القبور والهياكل كتطاول رجال العهد من بعدهم على قبور الملوك.

أخذت تلك الحوادث تفكك عرى فرنسة، فأصبحت في أواخر عهد هنري الثالث جمهوريات صغيرة

مستقلة متشاكسة، وقد تضاءلت سلطة الملوك فكانت بلْوَا تملي على هنري الثالث الذي فرّ من عاصمته مطاليبها، وقد شاهد السائح ليبَومانُو، سنة ١٥٧٧، في فرنسة مدنًا كبيرة، مثل أورليان وبلوَا وتور وپواتيه، عمّها الخراب، وكنائس متداعية وقبورًا مهدمة.

والواقعة التي تركت من بين وقائع ذلك الوقت أسوأ ذكر هي مذبحة سان بارتلمي التي أمر بها، سنة ١٥٧٢، شارل التاسع وكاترينا دوميديسيس.

لا يتطلب الجزمُ بأنه لم يوجد ملك قادر على الأمر بوقوع مثل ذلك الحادث بحثًا نفسيًا دقيقًا، فلم تكن واقعة سان بارتلمي جرمًا اقترفه الملك، بل جرمًا شعبيًا، فلما قتلت كاترين دوميديسيس في باريس خمسة من زعماء البروتستان الذين ظنت أنهم يأتمرون بها وبالملك وشاع ذلك في باريس انقض أشراف الكاثوليك والحرس الملكي والجمهور على الخوارج فقتلوا منهم ألفي نفس، وقد حذا سكان الولايات حذو أهل باريس في ذلك بعامل العدوى فسفكوا دماء ما يقرب من ثمانية آلاف نفس.

ولما سكَّن الزمان الحمية الدينية قليلًا أنحى المؤرخون من كاثوليك وغيرهم على مذبحة سان بارتلمي باللائمة فأثبتوا لنا بذلك أن الوقوف على نفسية عصر من خلال نفسية عصر آخر أمر متعذر.

لم يوجّه إلى حادثة سان بارتلمي أيام وقوعها شيء من الانتقاد في أوربة الكاثوليكية، وقد أوجبت حماسة لا توصف، فكاد فيليب الثاني يصبح مجنونًا لشدة فرحه عندما بلغه وقوعها، وتساقطت أنواع التهنئة على ملك فرنسة أكثر مما كانت تتساقط عليه لو نال نصرًا عزيزًا في ساحة الحرب، ولم يبد السرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثالث عشر، فقد أمر بضرب أوسمة خاصة تخليدًا لذكراها،[1] وبإيقاد نيران الفرح، وبإطلاق المدافع، وبإقامة قداديس كثيرة، وبجعل الرسّام فازاري يصور على جُدران القاتيكان مناظرها، ثم أرسل إلى ملك فرنسة سفيرًا ليهنئه بعمله المجيد، فهذه الأنباء التاريخية تدلنا على نفسية المؤمنين في كل دور.

ومن الأمور الطبيعية ألا يبقى البروتستان مكتوفي الأيدي إزاء هذه الملحمة، فقد بلغ امتعاضهم مبلغًا جعل هنري الثالث يمنحهم في مرسوم يوليو، الذي نشره سنة ١٥٧٦، حرية دينية تامة وثمانية أماكن حصينة وأن يكون عددهم في بعض البرلمانات مساويًا لعدد الكاثوليك.

ولم ينشأ عن هذه الامتيازات القهرية ارتياح في النفوس، فقد تألب الكاثوليك وعلى رأسهم دوك دو غيز، وأوقدوا نيران حرب لم يطفئها هنري الرابع إلا بارتداده سنة ١٥٩٣ وبوضعه مرسوم نانت.

نعم، إنه أضعف جذوتها، ولكنه لم يقض عليها، إذ رفع البروتستان راية العصيان أيام لويس الثالث عشر فاضطر ريشليو، سنة ١٦٢٧، إلى محاصرة لاروشيل حيث هلك ١٥٠٠٠ من البروتستان، ولما كان هذا الكردينال الشهير ذا روح سياسية عالية عاملهم بالتسامح.

ولم يدم هذا التسامح طويلًا، فالعقائد المتناقضة لا تظل متقابلة من غير أن تتصادم عندما تشعر إحداها بقدرتها على قهر الأخرى، فلما ضعف البروتستان في أيام لويس الرابع عشر عدلوا عن القيام بأية حركة عدائية وأصبحوا مسالمين، وقد كان عددهم ١٢٠٠٠٠٠ نفس وكان لهم ٦٠٠ كنيسة لها ٧٠٠ قسيس، وبما أن بقاءهم في فرنسة مما لم يصبر عليه كهنة الكاثوليك أخذوا في اضطهادهم فاعتمد لويس الرابع عشر، سنة ١٦٨٥، على فرسانه في قتل أناس كثيرين منهم، وبما أن ذلك لم يجد نفعًا ضغطه الإكليروس، ولا سيما بوسويه، فألغى مرسوم نانت وخيّر البروتستان بين ترك مذهبهم وبين هجرة بلاد فرنسة.

استمرت تلك الهجرة طويلًا، وقد خسرت فرنسة من أجلها أربعمئة ألف رجل كريم أصغوا إلى نداء ضمائرهم أكثر مما إلى مصالحهم الذاتية.

(٦) نتائج الثورات الدينية

لم تكن الثورات الدينية كلها سيئة مثل ثورة الإصلاح الديني، بل كان تأثير الكثير منها في تقويم الناس وتهذيب نفوسهم عظيمًا جدًّا. فهي بمنحها الشعب وحدة أدبية تزيد قوته المادية كثيرًا، وقد شوهد ذلك لما حوّل محمد — بما جاء به من الإيمان — قبائل العرب الضعيفة إلى أمة عزيزة.

ولا يقتصر المعتقد الديني الجديد على جعل الأمة متجانسة، بل يأتي بما يتعذر على أي فيلسوف أو قانون أن يأتي بمثله، أي إنه يغيِّر عواطف الأمة الثابتة.

وقد لوحظ ذلك وقتما قضت أكبر ثورة تاريخية على الوثنية وأقامت مقامها عبادة إله جاء من سهول بلاد الجليل، فقد دعا هذا الدين الجديد الناس إلى العدول عن كل نعيم في هذه الحياة؛ ليكونوا خالدين في ملكوت السموات، وهذا الدين الذي أقبل عليه الأرقاء والبائسون والمحرومو ن طيب العيش أيّما إقبال؛ لوعده إياهم نعيمًا دائمًا بدلًا من حياة لا أمل فيها، قد هان أمره على الأغنياء أيضًا، وهذا يثبت لنا ما للإيمان الجديد من السلطان على النفوس.

لم تقتصر الثورة النصرانية على تحويل العادات، بل أثرت تأثيرًا كبيرًا في سير الحضارة مدة ألفي سنة، فمتى يتم النصر لمعتقد ديني تلائمه عناصر الحضارة

ملاءمةً تتحول بها، ولا يفعل الكُتَّاب ورجال الأدب والفن والفلاسفة وقتئذ غير الإشارة إلى ذلك المعتقد الجديد في تآليفهم.

وعندما ينتصر الإيمان سواءً أدينيًا كان أم سياسيًا لا يؤثر فيه العقل، وإنما يجد هذا العقل مسوغات يزكيه بها، وربما كان أيام مُلِّكَ خطباءَ ولاهوتيون كثيرون يثبتون ما في القرابين البشرية من الفوائد كعدد من ظهر في الأزمنة الأخرى من الخطباء وعلماء اللاهوت الذين مجدوا محاكم التفتيش وملحمة سان بارتلمي ومذابح دور العهد.

ولا تعرف الأمم ذات المعتقدات القوية شيئًا من التسامح، فالأمم المشركة هي التي كانت متسامحة في القرون القديمة، والأمم المتسامحة في القرون الأخيرة هي التي يمكن نعتها بأمم ذات أرباب كثيرين، فهي، مثل الإنكليز والأمريكان، مفترقة على فرق دينية كثيرة وتعبد آلهة مختلفة بأسماء واحدة، غير أن تعدد المعتقدات الذي يجعلها متسامحة يضعفها في نهاية الأمر، وهنا نرى أنفسنا إزاء مُعضلة نفسية لم تحل حتى الآن، وهي: حيازة معتقد قوي ومتسامح معًا.

ظهر لنا من البيان الوجيز السابق ما للثورات الدينية من الشأن الأعظم وما للمعتقدات من السلطان الأكبر، فهي التي تقود التاريخ على الرغم من قيمتها العقلية القليلة، وهي التي تقي الأمم من أن تكون

أشخاصًا ضعفاء لا تربطهم رابطة، وقد احتاج الإنسان إليها في كل عصر ليوجه أفكاره نحو مطلب، وما استطاعت أية فلسفة أن تقوم مقامها حتى الآن.

الفصل الثالث

شأن الحكومات في الثورات

(ا) ضعف مقاومة الحكومات في الثورات

عانى كثيرٌ من الأمم الحديثة، كفرنسة وإسبانية وبلجيكة واليابان وتركية والپرتغال، أمرَ الثورات، وتوصف هذه الثورات في الغالب بحدوثها بغتة وبسهولة قلبِها للحكومات.

وسبب حدوثها بغتة هو سرعة العدوى النفسية الناشئة عن طرق النشر والإذاعة في الوقت الحاضر، ومما يقضي بالعجب ضعف مقاومة الحكومات لها، فذلك يدلُّ على عجزها عن الاطلاع على حقائق الأمور وكشف عواقبها.

لم يكن إسقاط الحكومات بسهولة أمرًا حديثًا، فقد شوهدت غير مرة حكومات قُلبت بسهولة، ومنها حكومة استبدادية أسقطتها مؤامرات البلاط، ومنها

حكومات مطلعة على الرأي العامِّ بواسطة الصِّحافة وبواسطة موظفيها.

ومن أمثلة ذلك السقوط الفجائي: خلع شارل العاشر بعد نشر مراسيمه بأربعة أيام، فهذا الملك، الذي لم يتخذ وزيره بولينياك وسيلة للدفاع عنه، بلغ من اعتقاده سكونَ باريس ما ذهب معه إلى الصيد، وقد تشتَّت شمل جيشه، لسوء قيادته أمام هَجمات عُصاة قليلين.

وخَلْعُ لويس فيليپ بثورة صغيرة يقضي بالعجب، فهذا الخلع لم ينشأ عن استبداده، وإنما نشأ عن عجز قواده عن الدفاع عنه، وذلك خلافًا لما قاله المؤرخون الذين لا يعتقدون إمكان سقوط حكومة منظمة يؤيدها جيش كبير على يد نفر من العصاة، والذين يعزون خلع لويس فيليپ إلى أسباب بعيدة من الحقيقة.

حقًّا وُجد في باريس جيش مؤلف من ٣٦٠٠٠ جندي لم يُنتفع به لعجز قادته وضعفهم، فلما أكثر هؤلاء القادة من إعطاء الأوامر المتناقضة ونَهَوا الجيش عن ضرب القوم اختلطت الجماعات بالجنود فتمّ النصر للثورة من غير كفاح واضُطرّ الملك إلى التنزل عن العرش.

وقد أشار الجنرال بونال — مستعينًا بمباحثنا في روح الجماعات — إلى أن إخماد الفتنة التي أدت إلى خلع لويس فيليپ كان ممكنًا، فبيّن أنه لو بقيَ شيَ في

رؤوس القواد من العقل لاستطاعت ثُلة من الجيش أن تردع العصاة عن الاستيلاء على مجلس النواب، ولنادى هؤلاء النواب الذين كانوا من أنصار الملكية بكونت دو پاري ملكًا وأنابوا أُمَّه عنه.

يُثبِت لنا ذلك ما للعوارض الصغيرة الثانوية من الشأن في تكوين الحوادث العظيمة، ويغنينا عن الإسهاب في بيان سنن التاريخ العامة، فلولا الفتنة الصغيرة التي أوجبت خلع لويس فيليپ ما قامت الجمهورية سنة ١٨٤٨ وما ظهرت الإمبراطورية الثانية وما حدثت واقعة سيدان وما أغار الأجنبي علينا وما أضعنا الألزاس على ما يحتمل.

ولم يَمُدَّ الجيش في الثورات التي ذكرتها يد المعونة إلى الحكومات، ولم يثُرْ عليها، وقد يقع عكس ذلك، فالجيش هو الذي قام بالثورات في البرتغال وتركية، وعلى يده تتم الثورات الكثيرة في الجمهوريات اللاتينية الأمريكية، وإذا قام الجيش بالثورة أصبح القائمون بأمور الدولة تحت إمرته، وقد وقع ذلك في أواخر الدولة الرومانية عندما كان الجنود هم الذين يخلعون الأباطرة.

ولا تتمّ الثورة بغير معاضدة الجيش أو بمحايدته على الأقلِّ، بيد أنها تبدأ في الغالب من غير أن يتدخل، ذلك كما حدث في ثورة سنة ١٨٣٠ وثورة سنة ١٨٤٨ وثورة سنة ١٨٧٠ التي قضت على الإمبراطورية حينما

شعر الناس في فرنسة بالعار الذي أصابهم من استيلاء الألمان على مدينة سيدان.

وتقع أكثر الثورات في العواصم، ومنها تسري بالعدوى إلى البلاد جميعها، وليس ذلك قاعدة ثابتة، فقد ثار أهل ڤانده وبريتانية والجنوب على باريس أيام الثورة الفرنسية الكبرى كما هو معلوم.

(٢) كيف تؤدي مقاومة الحكومات إلى انتصارها على الثورات

ظهر لنا من أكثر الثورات التي ذكرناها أن الحكومات الضعيفة تنهار عندما تُمَس، غير أن الثورة الروسية السابقة أثبتت لنا إمكان انتصار الحكومة التي تعرف كيف تدافع عن نفسها.

لم تحدث ثورة أكثر خطراً على حكومة من هذه الثورة، فبعدما غُلبت روسية في الشرق الأقصى وشعر الناس بشدة النظام الاستبدادي تمردت فيها الطبقات الاجتماعية، ومنها جزء من الجيش والأسطول، وأضرب موظفو الخطوط الحديدية والبريد والبرق عن العمل فانقطعت وسائل النقل والمراسلة في تلك الإمبراطورية العظمى.

ثم أخذت الدعوة الثورية تشيع بين طبقة الفلاحين الذين هم معظم الأمة الروسية، وقد كان هؤلاء يعيشون عيشة بؤس وشقاء لإكراههم — كما يقتضيه

نظام مير — على الفلاحة من غير أن تكون الغلة لهم فعزمت الحكومة على استمالتهم بتحويلهم إلى مُلَّاك، فوضعت قوانين أكرهت بها سادتهم على بيعهم جزءاً من أراضيهم، ثم أنشأت مصارف لتقرضهم مالًا يؤدون به ثمن ما يشترون على أن يدفعوا ديونهم إلى تلك المصارف أقساطًا سنوية من المحاصيل.

وبعدما استمالت الحكومة الروسية الفلاحين على هذا الوجه استطاعت أن تقاتل — من غير رحمة — العصاة المتمردين الذين كانوا يُحرقون المدن ويلقون القنابل بين الجماعات فأبادت من قبضت عليهم منهم سائرةً على السّنَّة الضرورية لحفظ المجتمع من الثائرين الذين يريدون نقضه.

ثم رأت الحكومة الروسية التي خرجت من هذه المعامع ظافرة أن تجيب فريق الأمة المهذب إلى مطاليبه الحقة فأنشأت مجلساً اشتراعياً يسن القوانين ويرقب النفقات.

يثبت لنا تاريخ الثورة الروسية كيف أن حكومة تداعت أركانُها الطبيعية استطاعت أن تتغلب على أشد الصعوبات بثباتها ودرايتها، فلقد أصاب من قال: «إن الحكومات لا تُقْلَب بل تنتحر».

(٣) ثورات الحكومات، مثال تركية والصين

الحكوماتُ تقاوم الثورات عادة ولا تقوم بها، غير أن هنالك حكومات قامت بإصلاحات فُجائية من فصيلة الثورات، وما اتصفت به الروح القومية في البلاد من الثبات أو التقلب يوضح لنا سر نجاح هذه الحكومات أو حبوطها في ذلك.

فالحكومة تنجح عندما تكون الأمة التي ترغب أن تكرهها على أنظمة جديدة مؤلفة من قبائل وحشية خالية من القوانين الثابتة والتقاليد الراسخة، أي من روح قومية قوية، ومن أمثلة ذلك روسية أيام بطرس الأكبر الذي حاول أن يفرنج الروس، واليابان مثال آخر للثورات التي قامت بها الحكومات، ولكن طرق اليابان الفنية هي التي تغيرت، لا روحها القومية.

ويتطلب النجاح في تلك المساعي وجود ملك عبقري مستبد قوي، وذلك لأن الملك المصلح يرى الأمة جمعاء قد وقفت في وجهه فيكون وقتئذ هو الثائر وهي المحافظة خلافًا لما يقع عادة.

والحبوط في تلك الثورات هو الأصل، سواء أمن علية القوم كان القائمون بها أم من سفلتهم، فروح الأمة الراسخة منذ زمن طويل لا تتبدل وإنما الأمور التي أبلاها الزمان هي التي تتحول.

قامت الصين في الوقت الحاضر بتجربة دلتنا على أن من المستحيل أن تجدِّد حكومة نظم الأمة فجأة، فالثورة التي اشتعلت فيها ونشأ عنها سقوط الأسرة المالكة هي نتيجة استياء الشعب من الإصلاحات التي أرادت الحكومة الصينية أن تلزمه بها لتحسن حالة البلاد، وقد أوجب تحريم الأفيون والقمار وإصلاح الجيش وفتح المدارس فيها أن زيدت الضرائب زيادة أقلقت الرأي العام كالإصلاحات نفسها.

فاستفاد من هذا السّخط بضعة صينيين درسوا في المدارس الأوربية فحرّضوا الشعب على الثورة؛ ليعلن النظام الجمهوري الذي لا يفقه صيني من أمره شيئًا.

ولا يدوم هذا النظام طويلًا، فلم يكنِ الباعث الذي أحدثه باعثَ تقدم، بل باعثًا رجعيًا، فكلمة جمهورية عند الصيني، الذي تخرج على الطريقة الأوربية، مرادفة لكلمة التحرر منِ سلطان القوانين والأنظمة والتقاليد، وهو يظن أنه بقصِه ضفيرته وبوضعه خوذة على رأسه وبإقامته الجمهورية يستطيع أن يرخي لشهوات نفسه أعنتها.

وسترى الصين قريبًا ما يكون أمر بنيانها الجديد الذي لم يقم على دعائم الماضي، فالعلم لم يكتشف بعد عصا السحر القادرة على إبقاء مجتمع فوضى، فستضطر الصين بعد أن تغوص بضع سنين في بحار الفتن التي تسفك بها الدماء إلى الاعتصام بسلطة مستبدة أشد من

السلطة التي قلبتها؛ إذ لا احتياج إلى إكراه الناس على النظام إذا كان وراثيًا، وأما إذا هَدمَت الشهوات الأنظمة التي أقامها الأجداد فلا يتجدد بناؤها إلا باستبداد شديد.

وقامت تركية أخيراً، كالصين، بتجربة قد تكون دليلًا على صحة ما بيناه، فقد استطاع منذ بضع سنين شبان درسوا في مدارس أوربية أن يخلعوا السلطان الذي أصبح استبداده لا يطاق، وأعانهم على ذلك كثير من الضباط ظانين أنهم قادرون على تأسيس نظام نيابي في بلاد متأخرة ذات أديان مختلفة مثل بلادهم.

لم يأت هؤلاء حتى الآن عملًا مشكوراً، وقد رأوا — على الرغم من انتحالهم الحرية — أنهم مضطرون إلى حكم البلاد بأساليب قريبة من أساليب العهد الذي قضوا عليه.

ولا يجوز أن يلاموا على ذلك، فما يفعلون في تحويل أمة ذات تقاليد قديمة راسخة وذات عواطف دينية قوية؟ وكيف لا يبقى الإسلام دين الدولة في بلاد اتحد فيها الشرع المدني والشرع الديني وقام فيها المبدأ الوطني على الإيمان بالقرآن؟ يصعُب هدم ذلك؛ ولذا رجعت تركية إلى نظام استبدادي ذي مسحة دستورية كنظامها السابق.

بتلك التجارب يُستشهد في القول: إنه يتعذر على الأمة أن تختار نُظُمَها قبل أن تغير روحها.

(٤) العناصر الاجتماعية التي تبقى بعد أن تقلب الثورات الحكومات

ما نقوله عن ثبات الروح القومية يدلنا على ما للنظم التي قامت منذ زمن بعيد من القوة، نعم، يقدر المؤتمرون على خلع الملك، ولكنهم يعجزون عن فعل شيء لا يلائم المبادئ التي يمثلها الملك، فلما خلع ناپليون لم يخلفه وارثه الممثل لمبادئ غير ثابتة في النفوس، بل ورثه ابن الملوك الممثل لمبدأ قديم.

ومهما يكن الوزير ماهرًا بارعًا في خدمة بلاده فقد لا يقدر على خلع ملكه، ولو أراد بسمارك ذلك ما استطاع، مع أنه كفى لسقوط بسمارك، وهو الذي صنع الوحدة الألمانية وحده، إشارة صغيرة من سيده.

على أننا إذا فرضنا وجود أسباب مختلفة تُلاشي الحكومة والمبدأ الذي تمثله، كما وقع أيام الثورة الفرنسية، فإن العناصر التي يتألف منها نظام المجتمع الحقيقي لا تزول كلُّها في الوقت نفسه، فلو اقتصر ما نعلمه عن فرنسة على ما وقع فيها من الانقلابات منذ عصرٍ لقلنا إنها فوضى، والواقع أنها تبدو للناظر ذات حياة اقتصادية صناعية سياسية مستمرة بعيدة من الانقلابات والأنظمة.

فبجانب الحوادث العظيمة التي يهتم بها التاريخ أمور صغيرة تخص الحياة اليومية ولا تعبأ الكتب

بذكرها، وهي تابعة لعوامل مهيمنة لا تقف أبدًا، ويتألف من مجموعها لُحمة حياة الأمة.

إذن مَنْ قادة الأمة الحقيقيون؟ لا ريب هم الملوك والوزراء في الأحوال العظيمة، ولكن لا شأن لهؤلاء الرجال في الأمور الصغيرة التي تتألف الحياة اليومية منها، فالقوى الحقيقية التي تسيِّر البلاد هي عناصر الإدارة غير الشخصية التي لا يؤثر فيها ما يصيب نظام الحكم من التحولات، ولهذه الإدارة، ذات التقاليد المحافظة المنصفة بالدوام والخفاء، قوة تنحني أمامها القوى الأخرى، وقد بلغ تأثيرها مبلغًا أوشك أن يكون لها به دولة خفية أقوى من الدولة الرسمية، وسيأتيك تفصيل ذلك.

الفصل الرابع

شأن الأمة في الثورات

(١) ثبات روح الأمة ومرونتها

يستلزم الاطلاع على أحوال إحدى الأمم الوقوف على بيئة تلك الأمة، ولا سيما ماضيها، فالماضي — وإن أمكن إنكاره نظريًا، كما فعل رجال الثورة الفرنسية وكثير من رجال السياسة في الوقت الحاضر — لا يفنى تأثيره.

ففي الماضي الذي هو تعاقب الأجيال تتكون عناصر روح الأمم من أفكار ومشاعر وتقاليد وأوهام، ولولا هذه العناصر التي لا ارتقاء بغيرها لاضطُر كل جيل إلى استئناف العمل.

ولا تتوطد عناصر روح الأمة إلا إذا كانت على شيء من الثبات الذي تسهل به مرونة تلك الروح، فالروح الوراثية بلا ثبات تكون مذبذبة غير مستقرة، وبلا مرونة تكون عاجزة عن ملاءمة تقلبات البيئة الناشئة عن تقدم الحضارة.

وشدة المرونة في روح الأمة تسوقها إلى القيام بثورات متوالية، وشدة الثبات تقودها إلى الانقراض، فذوات الحياة، ومنها الأنواع البشرية، تضمحل إن ظلت مستقرة على الرغم من تعاقب الزمن وعاجزة عن ملاءمة ما يطرأ على الحياة من الأحوال الجديدة.

والأمم التي وازنت بين هاتين الصفتين المتناقضتين — أي الثبات والمرونة — قليل عددها، ونذكر منها الرومان في القرون القديمة، والإنكليز في الوقت الحاضر.

حقًّا إن الأمم التي رسخت روحها كثيراً تأتي بأشد الثورات في الغالب، فهي لعجزها عن النشوء التدريجي تضطر إلى ملاءمة تقلبات البيئة بعنف عندما تصبح هذه الملاءمة أمراً ضروريّا.

ولا تستقر روح الأمة إلا ببطء عظيم، فما التاريخ إلا أنباءَ مجهوداتها الكبيرة في سبيل توطيد روحها، وتظل هذه الأمم مذبذبة لا رابطة بين أجزائها ما دامت غير ناجحة في ذلك. وقد سعت فرنسة، بعد أن أغار البرابرة على الدولة الرومانية في أواخر عهدها، قرونًا كثيرة لتنال روحًا قومية.

نعم، إنها اكتسبتها في آخر الأمر، ولكن رسوخها لم يلبث أن صار شديدًا، ولو اتصفت روحها بقليل من المرونة؛ لتطور نظامها الملكي القديم بالتدريج، ولتخلصت

من ثورتها الكبرى ومن نتائجها ومن سعي شاق لتجديد روحها القومية.

تثبت لنا الملاحظات السابقة شأن العنصر في تكوين الانقلابات، وتوضح لنا لماذا تأتي الثورة الواحدة بنتائج تختلف باختلاف الأمم، كما توضح لنا سبب إقبال بعض الأمم بحماسة على مبادئ الثورة الفرنسية ومقاومة الأمم الأخرى لها.

لا ريب في أن إنكلترة المحافظة عانت أمر ثورتين وقضت على أحد ملوكها، ولكن مزاجها النفسي كان ثابتًا ثباتًا كافيًا لحفظ تراث الماضي ومرنًا مرونة كافية لنشوء هذا المزاج حسبما تقتضيه الضرورة، وهي — على عكس رجال الثورة الفرنسية — لم تفكر قط في تقويض تراث الأجداد؛ لتقيم مجتمعًا جديدًا باسم العقل.

قال ألبير سورل: «بينما كان الفرنسي يحتقر حكومته ويمقت إكليروسه ويحقد على أشراف أمته ويتمرد على قوانين بلاده، كان الإنكليزي يفتخر بدينه وبدستوره وبأكابر أمته وبمجلس أعيانه، فكان كأنه يحكم أوربة ويستخف بها معتصمًا بأبراج ذلك الحصن المنيع».

ويتجلى لنا أيضًا شأن العنصر في مصير الأمم عند البحث في تاريخ الثورات الأمريكية الإسبانية الدائمة، فالأمم الأمريكية الإسبانية مولدة، أي مؤلفة من أناس

انحلت أخلاقهم بتأثير الوراثة المتباينة انحلالًا حرمهم روحًا قومية ثابتة وجعل حكمهم متعذرًا.

ومن يرد أن يطلع على التباين بين استعداد الأمم السياسي الناشئ عن اختلاف العنصر فليبحث عن أمة واحدة حكمها جنسان.

ولم يكن ذلك نادرًا في التاريخ، فقد تجلى حديثًا في القطرين، كوبا والفلپين، اللذين استولت عليهما الولايات المتحدة بعد الحكم الإسباني، فكلٌّ يعلم درجة ما وصلت إليه كوبا أيام الحكم الإسباني من الفوضى وما وصلت إليه من العمران، في بضع سنين، أيام حكم الولايات المتحدة.

وكلٌّ يعلم أن الفلپين كانت أيام سلطان الإسبان الذي استمر قرونًا كثيرة، مستنقعًا واسعًا تعيش فيه أمة بائسة عاطلة من التجارة والصناعة، وأنه بعد استيلاء الأمريكيين عليه أصبح خاليًا من العفن والحمّى والطاعون موصول الأجزاء بالسكك الحديدية مكتظًّا بالمصانع والمدارس متمتعًا بأسباب الصحة والوقاية.

فإلى مثل هذه الأمثلة يجب رد رجال النظر الذين لم يدركوا ما في كلمة العنصر من المعاني، ولم يفقهوا أن روح الأمة الموروثة هي التي تسيطر على مصيرها.

(٢) كيف تتلقى الأمة الثورة

شأن الشعوب واحد في الثورات كلها، فهي لا تدرك مغزاها ولا تدبر أمرها، وإنما الزعماء هم الذين يحركونها.

ولا يخلع الطاعة فريق من الشَّعب بغريزته إلَّا إذا مسّ الضر منافعه الظاهرة، وذلك كما وقع في شنپانية حديثًا، وتدعى هذه الحركة المحلية بالعصيان البسيط.

ويسهُل وقوع الثورة إذا كان زعماؤها من ذوي النفوذ العظيم، وأما مبادئ الثورة فلا تدخل في قلب الشعب إلا بالتدريج، فالشعب يقوم بالثورة من غير أن يعلم سببها، ومتى ساقه الحظ إلى إدراك هذا السبب فإن الثورة تكون قد انتهت منذ زمن طويل.

ويقوم الشعب بالثورة مجيبًا دعوة زعمائه، وهو مع عدم إدراكه شيئًا يستحق الذكر من أفكار هؤلاء الزعماء تتواردهُ هذه الأفكار حسبما يمليه عليه خياله.

خذ الثورة الفرنسية التي وقعت سنة ١٧٨٩ مثلًا ترَ غايتها أن يقبض على زمام الأمور أبناء الطبقة الوسطى بدلًا من الأشراف.

ولم يُنظر إلى مصلحة الشعب في بدء هذه الثورة إلا قليلًا، والشعب — وإن أعلنت سيادته فيها — كانت هذه السيادة تضر بحقه في انتخاب نوابه فقط.

وبما أن الشعب كان جاهلًا غير طامح إلى الارتقاء في السلَّم الاجتماعي كأبناء الطبقة الوسطى، وبما أنه كان شاعراً ببعده من درجة الأشراف غير طامع في مساواتهم، كانت أغراضه ومنافعه تختلف كثيراً عن أغراض علية القوم ومنافعهم.

بيدَ أن ما وقع بين المجلس النيابي والملك من المنازعات أوجب تدخل الشعب فيها شيئًا فشيئًا فأصبحت ثورة الطبقة الوسطى ثورة شعبية بذلك، وبما أن المبدأ لا يؤثر إلا إذا استند إلى العاطفة والتدين وجب على مبادئ الطبقة الوسطى النظرية، لتؤثر في الشعب، أن تتحول إلى إيمان جديد واضح مشتق من المنافع العملية الظاهرة.

تمّ هذا التحول بسرعة عندما سمع الشعب الرجال — الذين كانوا الحكومة في نظره — يقولون له إنه مساوٍ لسادته السابقين فاعتبر أنه كان ضحية وشرعَ ينهب ويحرق ويقتل ظانًّا أنه يتصرف في حق له.

وهكذا تجلت قوة المبادئ الثورية في منح حرية السير والعمل لأصحاب الغرائز الفطرية الضارة التي ردعتها البيئة والتقاليد والقوانين منذ القديم.

ولما أخذت الزواجر الاجتماعية التي كانت تزجر عامة الأمّة تتداعى على الوجه المذكور تصور هؤلاء أن قوتهم غير محدودة فصاروا يطاردون سادتهم السابقين

ويسلبونهم أموالهم، وهل يمتنع الشعب عن فعل كل شيء بعد أن يصبح حاكمًا؟

لم تلبث كلمة الحرية والمساواة والإخاء التي كانت عُنوان الإيمان الجديد والآمال الجديدة في بدء الثورة أن أخذت تسوغ غرائز الطمع والحسد والحقد، تلك الغرائز المحركة للجماعات والتي لا يزجرها نظام، وهذا ما جعل النظام يختلُّ والظلم يسود والفوضى تعمّ في وقت قصير.

وبعد أن هبطت الثورة الفرنسية من الطبقة الوسطى إلى طبقة العوامّ تقلص ظلُّ العقل وتغلبت عليه الغرائز، وانتصار الغرائز الموروثة أمر مخيف، فلم تؤدِّ المجهودات التي قامت بها المجتمعات لتعيش إلَّا إلى زجر بعض الغرائز الحيوانية الموروثة، نعم يمكن ردع هذه الغرائز، وكلما تقدمت الأمة في ميدان الحضارة صار هذا الردع أتمّ وأكمل، إلا أنه يستحيل القضاء عليها؛ ولذا كان تحريرها خطرًا جِدًّا، فمتى فاض السيل لا يرجع إلى مجراه قبل أن يخرب ما يصل إليه.

(٣) شأن الشعب في الثورات

تثبت لنا سنن روح الجماعات أن الشعب لا يسير من غير زعماء، وأن عمله — وإن كان عظيمًا في الثورات، لاندفاعه فيما حرض عليه — لا يقود ما ينجزه من الحركات أبدًا.

وللزعماء في كل ثورة سياسية تأثير، ومع أنهم لا يبتكرون المبادئ التي تستند إليها فإنهم يتخذونها وسيلة للعمل، فلكلٍّ من المبادئ والزعماء والجيوش والجماعات شأن خاص في جميع الثورات.

وتسير الجماعات التي هيّجها الزعماء معتزة بعددها، ومثل تأثيرها كمثل تأثير القنبلة التي تخترق الدرع مستمدة قوتها من شيء آخر، وقلما تدرك الجماعة شيئًا من الثورات التي تقوم بها، فهي تتبع الزعماء طائعة من غير أن تبحث عن شهواتهم، فقد خلعت شارل العاشر من أجل مراسيمه، وهي لم تفقه شيئًا من أمر هذه المراسيم، ولو سئلت عن سبب خلعها لويس فيليب لعجزت عن الجواب.

وقد خدعت الظواهر مؤلفين كثيرين، كميشله وأولار، فظنوا أن الشعب هو الذي قام بالثورة الفرنسية الكبرى، قال ميشله: «إن الفاعل الأصلي للثورة الفرنسية هو الشعب»، وقال أولار: «إن من الخطأ أن يقال إن الذين أوقدوا نار الثورة الفرنسية هم بعض الوجهاء، فقد

ثبت عندي — بعد الاطلاع على ما وقع في سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٩ — أن الشعب هو بطل تلك الثورة، وأنه لم يسيِّر الحوادث شخص واحد، سواء أكان ذلك الشخص لويس السادس عشر أم كان ميرابو أم دانتون أم روبسپير».

وقد غالى مسيو كوشان في قوله: «إن من الخوارق أن حكمت هذه الجماعة (الشعب) وأمرت وقالت وسارت مدة خمس سنين بإتقان تام غير مستعينة برئيس أو قانون، فقد كانت هذه الجماعة تعمل بغريزتها وهي مؤلفة من ٢٥ مليون نفس على مساحة ٣٠٠٠٠ فرسخ مربع كأنها رجل واحد».

نعم، لو كان سير الشعب غريزيًّا كما زعم هذا المؤلف لعد من الخوارق، وقد فطن مسيو أولار لاستحالة ذلك فكان حينما يبحث عن الشعب يقول إنه مؤلف من أحزاب لها رؤساء، قال هذا المؤلف: «من وطَّد الوحدة القومية؟ ومن أنقذ الأمة التي هاجمها الملك ومزقتها الحرب الأهلية؟ أدانتون أم روبسپير أم كارنو؟ كلا، نعم، قد خدم هؤلاء الأمة، ولكن الذي أيد الوحدة والاستقلال هو تجمع الأمة الفرنسية على شكل بلديات وجمعيات شعبية، وإذا كان في كل حزب بضعة زعماء فإن هؤلاء الزعماء كانوا يستمدون قوتهم من أحزابهم وينفذون أحكامها كما يظهر ذلك من مطالعة محاضر الجمعيات الشعبية».

(٤) طبقات الأمة

يقال في الرد على بعض الأفكار إن الأمة ذات كيان لاهوتي حائز جميع ما يمجده رجال السياسة ويسهبون في ذكر ما له من القوى والفضائل، وسنبدي رأينا في ذلك عند بحثنا الآن عن شأن الأمة في الثورة الفرنسية.

إن الأمة، عند المتقدمين والمتأخرين من اليعاقبة — كالآلهة — ذات شخصية سامية لا تُسأل عما تفعل ولا تخطئ أبدًا، فالجميع مسؤول عن إطاعتها وإن جاز لها أن تقتل وتنهب وتُحرق وتأتي أقسى المظالم وتَطرح غدًا في الدرك الأسفل مَنْ رَفَعَتْه اليوم إلى مصافِّ الأبطال، ولا يعدل رجال السياسة عن السجود أمام أحكامها مسبحين بحمد فضائلها وحكمتها العالية.

فما حقيقة الأمة، أي المعبود الذي يقدسه الثوريون منذ قرن؟

يمكن تقسيمُها إلى قسمين: فالقسم الأول يشتمل على الفلاحين والتجار وأرباب الحرفة، أي على من يحتاجون إلى السكينة والنظام ليقوموا بمهنهم، ويغفل المؤرخون أمر هذا الفريق الذي هو أكثرية الأمة، والذي لا يقوم بالثورات أبدًا، والذي يعيش عيش عناء وسكوت.

وأما القسم الآخر، الذي له شأن مهم في الفتن القومية كلها، فهو ثمالة اجتماعية هادمة ذات نفسية

أثيمة، أي هو أناس يتألف من مجموعهم جيوشٌ متمردة حوّلها البؤس وإدمان المسكرات إلى لصوص وصعاليك.

فالخوف من العقاب يردع الكثير من هؤلاء الأخلاط المشائيم عن اقتراف الجرائم في الأوقات العادية، ولكنهم لا يتأخرون عن ارتكابها عندما تستطيع غرائزُهم المنحطة أن تسير حرة، فهم الذين كانوا يستولون — بتأثير زعمائهم — على مجالسنا الثورية الكبرى ويقترفون أنواع القتل والنهب والتحريق غير مكترثين للنظريات والمبادئ أبدًا.

وينضمّ — بتأثير العدوى — إلى هذه الطبقة المنحطة جماعةٌ من العاطلين الذين يصرخون مع كل ناعق ويتمردون مع كل متمرد من دون أن يفقهوا شيئًا من المسألة التي يصرخ من أجلها ويتمرد.

ولا يعرف الخطباء غير هذه الجماعات المشاغبة الضارة التي هي آلة كل عصيان منذ القديم والمؤلفة من الرِّعاع الذين قال تيَارُ عنهم: «إنهم لم يتغير منهم شيء منذ الأزمنة التي رآهم فيها ناسيتُ يصفقون لجرائم القياصرة، وإنهم يتأهبون لتدنيس المجتمعات باقترافهم أنواع الجرائم مجيبين نداء كل سلطة لوصم كل مبدأ».

لم يمتد شأن الرَعاع في دور امتدادَه أيام الثورة الفرنسية، فمنذ تفلتوا من قيدهم سنة ١٧٨٩، أي قبل دور العهد بقليل، أخذوا في ذبح الناس، وقد شرّحوا

المسجونين وهم أحياء، ومثلوا بهم؛ لتمتد آلامهم ويتسلى الحضور باضطرابهم ونُواحهم.

هكذا يسير الرعاع عندما تقضي الأيدي الغافلة على الزواجر الرادعة لغرائزهم المتوحشة المنتقلة إليهم بالوراثة، فلو تكاثف هؤلاء الرعاع طرفة عين؛ لظهر هذا الجسم غولًا طاغيًا قليل العقل سفَّاكًا للدماء.

على أنه يسهل التغلب على هؤلاء الرعاع عندما يقف في وجههم جبار عنيد، فقد أعانوا كل استبداد، وأيقن القياصرة أنهم يصفقون لهم سواء أكاليغولا كان اسمهم أم نيرون أم روبسپير أم بولانجه.

وبجانب هذه الزمر المخربة ذات الشأن الكبير في الثورات نذكر فريق الأمة الذي لا يصبوا إلا إلى الجد والعمل كما بينا ذلك سابقًا، فهذا الفريق، وإن كان يستفيد أحيانًا من الثورات، لا يفكر في القيام بها، ولا يعلم رجال الثورة من أمره إلَّا قليلًا.

نعم، قد يجعله الخوف مطيعًا فيقوده الزعماء بنفوذهم إلى اقتراف المظالم، ولكن مقومات الأمة الوراثية لم تلبث أن يثقل ميزانها فيضجر ذلك الفريق من الثورات فتدفعه روح الأمة الثابتة إلى الوقوف أمام الفوضى عندما تستفحل باحثًا عن رئيس قادر على إعادة النظام.

وليس لهذا الفريق الهادئ مبادئ سياسية سامية أو غامضة ألبتة، فغايته أن يسود الحكم المطلق؛ ولذا قام

هذا الحكم بعد الفوضى على الدوام، فقد عقب الحكم المطلق الثورة الأولى عندما هتف لناپليون، وقد عقب الثورة الثانية عندما رفع الانتخاب العام لويس ناپليون إلى رئاسة الجمهورية وأقره على استبداده بالحكم، ثم جعله إمبراطوراً، ثم استصوب نظامه سنة ١٨٧٠، أي قُبيل الحرب الفرنسية البروسية.

وجبَ أن لا تغيب الحوادث التي أشرنا إليها في هذا الفصل عن بالنا إذا أردنا الاطلاع على شأن الأمة في الثورات، فللأمة شأن كبير فيها، ولكنه يختلف عما جاء في الأقاصيص.

الباب الثاني
النفسية التي تسود
الثورات

الفصل الأول

تقلبات الخلق أيام الثورات

(ا) تحول الشخصية

فصّلتُ في مؤلف آخر نظرية الأخلاق التي يستحيل إدراك تحول الإنسان بغيرها أيام الثورات، وإليك عناصرها الأساسية:

لكل امرئٍ — ما عدا نفسيته الثانية — شؤون خلقية متقلبة تُظهرها الحوادث.

وتتألف شخصية الإنسان الخاصة من اجتماع شخصيات وراثية كثيرة تبقى متوازنة ما دامت البيئة ثابتة لا تتقلب، فمتى تقلبت هذه البيئة كثيراً، وذلك كما يقع أيام الفتن، اختل هذا التوازن وتألف من تكتل العناصر المنحلة شخصية جديدة ذات أفكار وعواطف ومناهجٍ تختلف جدًّا عن الشخصية العادية، ومن ذلك أن كثيراً من رجال الصلاح والقضاء، الذين كانوا موصوفين بالحلم، انقلبوا أيام الهول إلى أناس متعصبين سفاكين للدماء.

حقًّا قد يصير المرء بتأثير البيئة الجديدة أمرأً آخر، وحقًّا إن القائمين بالأزمات الدينية والسياسية العظيمة مثلنا، وإن لاح لنا أنهم من جوهر يختلف عن جوهرنا، فمن تكرار الحوادث نفسها يظهر الأشخاص أنفسهم.

وكيف تتألف شخصية جديدة عندما تنحل الشخصية العادية بفعل بعض الحوادث؟ إنها تتألف بوسائل كثيرة أهمها: حيازة معتقد قوي.

فبالمعتقد تألفت الشخصيات التي شوهدت في الأزمات العظيمة كالحروب الصليبية والإصلاح الديني والثورة الفرنسة، وإننا، لعدم تحول البيئة في الأوقات العادية، لا نشاهد سوى شخصيات متماثلة في الناس.

وقد تصبح هذه الشخصيات متناقضة متشاكسة، ولكن ذلك يحدث قليلًا في الأزمنة العادية، ويكون بارزاً أيام الاضطرابات.

وليس الذكاء هو الذي يتغير عند تحول الشخصيات، بل المشاعر التي يتألف الخلق منها.

(٢) عناصر الخلق السائد للثورات

نشاهد في أيام الثورات أن المشاعر المزدجرة عادة تسير حرة عند رفع الزواجر الاجتماعية، ولا ترفع هذه الزواجر المستندة إلى القوانين والتهذيب والتقاليد

رفعًا كليًا، بل يبقى بعضها على الرغم من الانقلابات، وينفع هذا البعض في وقف ثوران المشاعر الخطرة.

وروح العنصر أقوى هذه الزواجر، فهي تحدد تقلبات الأمة وتسيرها على الرغم من ظواهر الأمور، فلو نظرنا إلى ما قصّه التاريخ لظهر لنا مثلًا أن النفسية الفرنسية تبدلت كثيراً في قرن واحد، أي انتقلت في سنين قليلة من نظام الثورة إلى النظام الإمبراطوري فإلى النظام الملكي فإلى نظام الثورة فإلى النظام الإمبراطوري، والواقع أن ظواهر الأمور وحدها هي التي تغيرت.

ولا نوضح حدود تقلب الأمة بأكثر مما فعلنا، وسنبحث الآن في العناصر العاطفية التي يساعد انتشارُها أيام الثورات على تغيير شخصيات الأفراد والجماعات، وسأذكر من هذه العناصر: الحقد والخوف والحرص والحسد والزهو والحماسة، فقد لوحظ تأثير هذه العناصر في انقلابات التاريخ كلها، ولا سيما في الثورة الفرنسية الكبرى.

(٣) الحقد

حقدُ رجال الثورة الفرنسية على الناس والنظم وكل شيء هو أحد مظاهرهم العاطفية التي تبدو عند البحث في نفسيتهم، فلم يكتف هؤلاء الرجال بمقت أعدائهم بل مقتوا أيضًا أعضاء حزبهم الخاص، قال أحد الكُتَّاب حديثًا: «إذا نظرنا إلى ما كانوا يصفون به بعضهم بعضًا لم نرَ فيهم سوى الخونة والكاذبين وبائعي الضمائر

والقتلة والظالمين»، وما كان مجهولًا ذلك الحقد الذي غلى في صدور الجيروندیين والدانتونيين والإيبريين والروبسپيريين أيام كانوا يتطاردون، فلم يهدأ هذا الحقد إلَّا بقتل كل امرئ من يخالفه.

وسبب ذلك هو أن هؤلاء الهائجين لمَّا اعتقدوا أنهم على الحق صاروا، كالمؤمنين في كل زمن، لا يطيقون مسامحة من لم يكن على مذهبهم، فصاحب الإيمان الديني أو العاطفي يميل إلى حمل الناس على إيمانه دائمًا، وهو لا يتأخر عن القتل في سبيله إذا استطاع ذلك.

ولو كان العقل مصدر الأحقاد التي فرقت بين رجال الثورة الفرنسية لم تدم هذه الأحقاد طويلًا، ولكن صدورها عن خُلُق التدين والعاطفة جعل أصحابها عاجزين عن الصفح، وبما أن مصدرها واحد عند الأحزاب كلها ظهرت بشدة واحدة عند الجميع، ولقد أثبتت الوثائق الصحيحة أن الجيروندیين لم يكونوا أقل من حزب المونتانيار سفكًا للدماء، فكانوا أول من صرح مع بيسيون بأنه يجب على الأحزاب المغلوبة أن تبيد، وقد بيّن مسيو أولار أنهم حاولوا تسويغ مذابح سپتمبر، وعليه وجب ألَّا تعدَّ طريقة الهول من طرق الدفاع، بل من طرق الإبادة التي يتخذها المؤمنون الغالبون نحو أعدائهم المقهورين، فالإنسان — وإن تحمل ما يباين أفكاره — لا يطيق معتقدًا مخالفًا لمعتقده أبدًا.

لا سلام للمغلوب في المنازعات السياسية والدينية، هذه سنةٌ لم تتبدل منذ قطع سيلًّا رقاب مئتي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ورقاب زهاء ستة آلاف روماني حتى رجال الكومون الغالبين الذين قَتَلوا بالرصاص أكثر من عشرين ألف مغلوب، ولا ريب في أن هذه السّنّة ستجري حكمها في المستقبل كما فعلت في الماضي.

ولم يكن اختلاف المعتقدات وحده سبب الأحقاد التي ظهرت أيام الثورة الفرنسية، بل صدرت تلك الأحقاد أيضًا عن المشاعر الأخرى كالحسد والحرص والعجب، ومما أوجبته هذه المشاعر مغالاة رجال الأحزاب المختلفة في الحقد، فما كان يقع بين الأشخاص من المزاحمة للقبض على زمام الأمور كان يسوق رؤساءَ الأحزاب إلى المقصلة واحدًا بعد الآخر.

ونرى أن من عناصر الروح اللاتينية الميل إلى الانقسام وما ينشأ عنه من الأحقاد، فبه أضاع أجدادنا الغوليون استقلالهم، وقد انتبه إلى ذلك يوليوس قيصر فقال: «ليس في بلاد الغول مدينة غير منقسمة إلى حزبين كما أنه ليس فيها كورة أو قرية أو دار خالية من روح التحزب، وقلما تمضي سنة من غير أن تهاجم مدينة جاراتها بالسلاح».

وبما أن الإنسان لم يدخل في دور المعرفة إلا منذ زمن قليل، وكان مسيّرًا بالمشاعر والمعتقدات، تجلى لنا شأن الحقد في التاريخ، ولقد أشار أحد أساتذة المدرسة

الحربية القائد كولان إلى أهمية عاطفة الحقد في بعض الحروب حيث قال: «لا داعي إلى الشجاعة في الحرب أكثر مما إلى الحقد، فهو الذي نصر بلوخر على ناپليون، وإذا بحثنا عن أحسن الحركات العسكرية وأحزمها رأيناها قد صدرت عن البغض والنفور أكثر مما عن العدد، وماذا كانت نتيجة حرب سنة ١٨٧٠ لولا الحقد الذي كان يحمله الألمان في صدورهم ضدَّنا؟»

ويمكن هذا المؤلف أن يقول أيضًا إن حقد اليابان الشديد على الروس الذين كانوا يزدرونهم هو أحد الأسباب التي نصرت أولئك على هؤلاء، وأما الروس فبما أنهم كانوا لا يعلمون غير شيء يسير عن اليابان فإنهم لم يحملوا شيئًا من الضغينة نحوهم فزاد ذلك ضعفهم.

نعم، لاكت الأفواه كلمة الإخاء أيام الثورة الفرنسية، ولا يزال الناس يرددونها، وصارت كلمة السلم والإنسانية والتضامن قواعد للأحزاب، ولكن شدة الأحقاد المستترة تحت هذه الكلمات والأخطار المحدقة بالمجتمع الحاضر ليست بالشيء الخفي.

(٤) الخوف

للخوف في أيام الثورات شأن عظيم يقرب من شأن الحقد، فرجال العهد الذين كانوا كثيري الشجاعة أمام المقصلة كانوا شديدي الجبن أمام وعيد مثيري الفتن الذين كانوا متسلطين على مجلس النواب، وسنرى ذلك عندما نلخص تاريخ مجالسنا الثورية.

حقًّا شوهد الخوف بمظاهره كلها في ذلك الزمن، وكان الظهور بمظهر العاقل المعتدل أخوف ما يخافه الناس، فقد سابق أعضاء المجالس وموظفو الاتهام وقضاة المحاكم خصومهم في التطرف، أي في اقتراف الجرائم، ولو أن معجزة أزالت الخوف من المجالس الثورية لكان لها سير آخر وكان للثورة الفرنسية وجهة أخرى.

(٥) الحرص والحسد والزهو

تتبع هذه العناصر العاطفية في الأوقات العادية مقتضيات الاجتماع فيكون الحرص محدودًا بحكم الضرورة في مجتمع قائم على نظام المراتب، فإذا صار فيه جنديّ قائدًا فذلك لا يقع إلا بعد انقضاء زمن طويل، وأما في أيام الثورات فبما أنه جاز لكل امرئ أن يصعد في أعلى المراتب فإن خلق الحرص يهيج عند الناس فيظن أحقرهم أنه أهل لها فيبلغ الزهو فيه غايته.

وللحسد شأن عظيم في الأدوار الثورية، فكان حسد الناس للأشراف سببًا من أسباب الثورة الفرنسية، ولما زادت الطبقة الوسطى فيها مالًا وسطوة وكثر اختلاطها بالأشراف شعرت — على الرغم من ذلك — ببعدها منهم فأحست في نفسها ألمًا شديدًا، وهذه الحالة الروحية جعلتها تميل غير شاعرة إلى المذاهب الفلسفية القائلة بالمساواة.

إذن، كانت عزة النفس المجروحة والحسد سببين لما لم ندرك مغزاه اليوم من الأحقاد، فكان كثير من رجال

العهد مثل كاريه ومارا وغيرهما يتذكرون — والغضب آخذ منهم مأخذه — أنهم تقلدوا وظائف ثانوية لدى الأمراء الإقطاعيين، وما استطاعت مدام رولان أن تنسى أنها عندما دُعيت في الدور السابق مع والدتها للعشاء عند سيدة كبيرَة تناولتاه مع خدم المائدة.

قال الفيلسوف ريفارول: «لم تكن الضرائب وأوامر الملك وتصرف السلطة السيئ وجَوْر الولاة وتقاعس القضاة أموراً أثارت وحدها ساكن الأمة، بل إن الأمة أظهرت من الحقد على طبقة الأشراف ما لم تظهره على شيء آخر».

قال نابليون: «إن الزهو كان سببًا للثورة الفرنسية، ولم يكن السعي إلى الحرية سوى حجة باطلة».

(٦) الحماسة

حماسة مؤسسي الثورة الفرنسية تعدل حماسة ناشري دين محمد، فقد كانت تلك الثورة ديانة اعتقد رجال الطبقة الوسطى في المجلس الاشتراعي الأولَّ أنهم أسسوها وقضَوا بها على المجتمع القديم، وأقاموا بها حضارة أخرى على أنقاضه، وما وجد خيال فاتن شغل قلب الإنسان أكثر من ذلك الخيال، فكان أولئك الرجال يقولون إن مبدأ الإخاء ومبدأ المساواة اللذين أعلنوهما يمنحان الأمم سعادة أبدية، وإنه لما قُطعت العلائق بالماضي المظلم المتوحش أصبح المجتمع الجديد سائرًا على نور العقل المطلق.

وإذا كان العنف قد قام حالًا مقام هذه الحماسة فذلك لأن انتباه الناس كان سريعًا، ويسهُل علينا إدراك السر في أن رسل الثورة الفرنسية وقفوا أشداء غاضبين في وجه العوائق اليومية المانعة من تحقيق أحلامهم، فهم لما أرادوا نبذ الماضي ونسيان التقاليد وتجديد البشر، وكان الماضي يظهر من غير انقطاع، والبشر يأبي أن يتغير، اضطروا إلى التوقف عن سيرهم غير مريدين الخضوع، فأخذوا يكرِهون الناس على الانقياد لأوامرهم بضغط أعادوا به — في النهاية — النظام السابق المقضيّ عليه، والذي لم يلبث أن أسِف الناس عليه.

ومما يستحق الذكر أن حماسة الأيام الأولى التي لم تدم كثيراً في المجالس الثورية بقيت في الجيوش، فكانت سرّ قوتها، فجيوش الثورة الفرنسية، التي كانت تميل إلى الجمهورية قبل أن تصبح فرنسة جمهورية، استمرت على نزعتها زمنًا طويلًا بعد أن صارت فرنسة غير جمهورية.

تتبع تقلبات الخلق، التي بحثنا فيها آنفًا، بعض الأماني وتحولات البيئة، وهي ترد إلى أربع نفسيات: النفسية اليعقوبية، والنفسية الدينية، والنفسية الثورية، والنفسية المجرمة.

الفصل الثاني

النفسية الدينية والنفسية اليعقوبية

(ا) تقسيم النفسيات التي تسود الثورة

تؤدي التقسيمات — التي يستحيل البحث العلمي بغيرها — إلى قطع ما هو متصل، ولا مفر من ذلك، فالمتصل لا يدرك إلا بعد تحويله إلى أجزاء.

ولم يكن التفريق بين مختلف النفسيات التي تسود الثورة سوى فصل عناصر متداخلة، ويجب ترك قليل من الضبط والصحة لنيل ما يقابل ذلك من الوضوح، فالعناصر الأساسية التي أشرنا إليها في آخر الفصل السابق لا يمكن تفصيلها عند البحث فيها مشتبكةَ الأجزاء.

بينَّا أن الإنسان تسيره أنواع المنطق الكثيرة المتقاربة التي لا يؤثر بعضها في بعض في الأوقات العادية، وتتنازع هذه الأنواع بتأثير الحوادث، فيبدو الفرق بينها

للعيان فيؤدي ذلك إلى اضطرابات فردية وانقلابات اجتماعية عظيمة.

(٢) النفسية الدينية

توصف روح التدين بإسنادها قدرة عظيمة إلى قوى عُلْوية تتمثل على شكل أصنام وأنصاب وألفاظ وصيغ، وهذه الروح هي أساس المعتقدات الدينية كلها وكثير من المعتقدات السياسية.

والمنطق الدينيّ مُشبعٌ من المشاعر وسائر العواطف، والفتن الشعبية الكبيرة تنال قوتها منه، وإذا كان الناس لا يبذُلون من حياتهم في سبيل المعقولات إلَّا شيئًا قليلًا فإنهم يبذُلونها كلها طوعًا في سبيل خيال ديني يعبدونه.

لم تلبث مبادئُ الثورة الفرنسية أن ألقت في قلوب الناس حمية دينية كالتي ألقتها المعتقدات الدينية السابقة، ولم تفعل بذلك غير تحويلها وجهة النفس الموروثة المتكاثفة مع الزمن.

إذًا لا تعجب من حمية رجال العهد الشديدة، وهم يشابهون — بنفسيتهم الدينية — البروتستان في دور الإصلاح الديني، وقد كان أبطال دور الهول كروبسپير وكوتون وسان جوست وغيرهم رسلًا يشبهون بوليوكت الذي ظنَّ أنه بهدمه تماثيل الآلهة الباطلة في سبيل إيمانه يجعل العالم نصرانيًا، فلما اعتقدوا أن صيغهم

السحرية تكفي لدك العروش لم يترددوا في شهر الحرب على الملوك، وقد غلبوا أوربة بفضل إيمانهم القوي الذي يغلب الإيمان الضعيف.

وكان تديّن زعماء الثورة الفرنسة يظهر في أدق أعمالهم، فقد قال روبسپير في إحدى خطبه، وهو يعتقد أنه محفوف بعون الله: «إن الله تعالى أمر بالحكم الجمهوري منذ البداءة»، وجعل — وهو الحبر الأعظم لدين الحكومة — مجلس العهد يضع مرسومًا جاء فيه: «أن الأمة الفرنسية تؤمن بالله تعالى وبخلود النفس»، وألقى، وهو جالس على العرش يوم عيد الرب، موعظة طويلة.

واعتقد مكسمليان (روبسپير) «وجود إله قادر عظيم يحافظ على البريء المظلوم ويعاقب المجرم الظافر»، وكان الخوارج الذين كانوا يطعنون في المذهب اليعقوبي يُرسَلون إلى المحكمة الثورية التي كان لا يخرج منها المتهم إلَّا إلى المقصلة.

ولم تمت النفسية الدينية بموت روبسپير الذي هو عُنوانها، فبين رجال السياسة نرى أناسًا ذوي نفسية تشبه نفسيته، فهؤلاء — وإن لم يكن للمعتقدات الدينية القديمة سلطان عليهم — يخضعون لتعاليم سياسية لا يتأخرون ساعة — عند المقدرة — عن حمل الناس عليها، فطريقة الإرشاد في كل جيل، عند المتدينين الذين يضحّون

بأنفسهم في سبيل نشر معتقدهم، واحدة حينما يصيرون سادة.

إذن، من الطبيعي أن يكثر عدد المعجبين بروبسپير والناسجين على منواله، وهو وإن قُطع رأسه بالمقصلة لم تقطع مداركه، ولا تزول المدارك التي نشأت مع الإنسان إلا بزوال آخر المعتقدين.

لم ينتبه أكثر المؤرخين إلى وجه الثورات الدينيَ، وسوف يستمرون على عزوهم كثيراً من الحوادث إلى المنطق العقلي البعيدة منه، وقد ذكرت في فصل سابق عبارة لمسيو لاڤبس ولمسيو رانبو قالا فيها إن ثورة الإصلاح الديني «نتيجة تأملات فردية أورثها قلوب البسطاء عقل مقدام».

فلا يمكن إدراك هذه الثورات إذا ظن أن مصدرها العقل، فللمعتقدات التي أقامت العالم وأقعدته، سواء أدينية كانت أم سياسية، مصدر واحد، وكلها سار على سنة واحدة، أي أنها لم تتمّ بالعقل، وكثيراً ما تمت خلافًا لكل عقل، نعم يظهر أن البَدهية (البوذية) والنصرانية والإسلام والإصلاح الديني والسحر واليعقوبية والاشتراكية والمذهب الروحاني معتقدات متباينة، ولكنني أقول مؤكدًا: إن لها دعائم عاطفية ودينية واحدة، وتتبع منطقًا لا علاقة بينه وبين المنطق العقلي، وقوتها ناشئة عما للعقل من التأثير الضئيل في تكوينها وتحويلها.

وقد فصلت نفسية رسلنا السياسيين الدينية في الوقت الحاضر في مقالة نشرت في إحدى الجرائد الكبيرة، جاء في هذه المقالة التي تمسّ أحد وزرائنا السابقين: «يسألون عن الفرقة التي ينتسب إليها مسيو فلان، هل هو من فرقة الملحدين؟ فيا للسخرية! ... نسمع، مع عدم اختياره أي إيمان وضعي ولعنه رومة وجنيف أنه يجحد بالعقائد التقليدية، ويكفُر بالكنائس المعروفة، فهو إن جعل الصفيحة هكذا ملساء فذلك ليقيم عليها كنيسته الخاصة التي هي ذات بدعٍ أكثر من كل كنيسة، ولن تقل محكمته التفتيشية في شدة تعصبها وعدم تسامحها عن أشهر محاكم توركمادة».

«وصرح بأنه لا يرضي عن حرية التعليم، وبأنه يطلب أن يكون التعليم زمنيا من كل وجه، وهو إن لم يقل بالإحراق فذلك لاضطراره إلى مداراة نشوء العادات والطبائع، وهو لعجزه عن قتل الناس يستعين بالقوة الزمنية للحكم على المذاهب كلها بالموت، وقد بلغت حرية الفكر فيه مبلغًا جعله يقول إن كل فلسفة لا يرضى عنها مجرمة أثيمة موجبة للهزء والسخرية، وهو يزعم أنه اطَّلع على الحقيقة المطلقة، وأوجب اعتقاده هذا أن يعتبر كل من يخالفه غولًا شنيعًا وعدوًّا فظيعًا. فمسيو فلان — كما يظهر — من أشياع آلهة العقل التي تُشبِه الإله مُولَك الظالم في تعطشها إلى القرابين البشرية».

«ألا إن الأماني خلابة، وكم من أصنام حطمت منذ بضعة قرون تمهيدًا للسجود أمام صنم حديث».

وبما أن سلطان العقل على المعتقدات الدينية قليل فقد أصبح من اللغو أن تجادل — كما يفعل بعض الناس — فيما للمبادئ الثورية والسياسية من القيمة العقلية، وتأثيرها وحده هو الذي يهمنا، وسواءٌ علينا أكذَّبت التجربة نظرية المساواة ونظرية الصلاح الفطريِّ ونظرية تجديد المجتمع بالقوانين أم لم تكذبها.

(٣) النفسية اليعقوبية

اصطلحتُ على تعبير «النفسية اليعقوبية»، مع أنه لم يسبِقني أحد إليه في أي تقسيم كان؛ لدلالته على نوع نفسي خاص.

فقد سادت هذه النفسية رجال الثورة الفرنسية، ولا تزال مؤثرةً في سياستنا الحاضرة.

زعم اليعاقبة أنهم عاطلون من خُلُق التدين وأن العقل يسيرهم، وقد كانوا يستشهدون بالعقل أيام الثورة الفرنسية ويتخذونه هاديًا مرشدًا.
وقد رأي أكثر المؤرخين أن الروح اليعقوبية تنزع إلى المعقول، وذهب تاين إلى هذا الرأي الفاسد فعزا كثيرًا من أعمال اليعاقبة إلى مغالاتهم في المعقولات، غير أنه جاء في بحثه عنهم بعض الحقائق التي تستحقُّ النظر، فإليك بعضها:

لم تكن عزة النفس والعقل النظريّ بالشيء النادر عند البشر، ففي أيِّ بلد نراهما، وهما مصدر الروح

اليعقوبية، لا يفنيان، ومتى بلغ عمر المرء عشرين سنة فدخل معترك الحياة استحوذ الغمّ على عقله وزهوه فاعتبر المجتمع الذي نبت فيه حاجزًا يحول دون تقدم عقله النظري، والمجتمع قد أوجدته الأجيال المتعاقبة على حسب احتياجاتها الكثيرة المتحولة، أي أنه لم يكن من صنع المنطق، بل من صُنع التاريخ كما هو معلوم، ثم يهزّ ذلك المبتدئ كتفيه هازئًا بهذا البناء الاجتماعي الهرِم الذي لم يقم على نظام والذي يبدو عليه الرتق والترقيع.

انظروا إلى أحسن ما أنتجته قرائح أولئك الرجال، أي إلى خطب روبسپير وسان جوست وإلى مناقشات المجلس الاشتراعي الأول ومجلس العهد وإلى أقوال الجيروندیين والمونتانيار وإلى مناشيرهم وتقاريرهم تروا أنهم أتوا فيها بأكثر الكلام للتعبير عما يتطلب أقله، وأن تعقلهم كان يغرق في بحر طام من الألفاظ المفخمة، فاليعقوبي يسير وراء ما يدور في دماغه المتعقل من الأوهام والخيالات التي هي عنده أكثر من غيرها ولا يعبأ إلَّا بما توحيه إليه فيصرخ بين الناس كما يهتف في موكب النصر

وإني، وإن كنت أعجب ببيان تاين، لا أعتقد أنه فهم نفسية اليعقوبي تماماً.

فروح اليعقوبي الحقيقي — سواء أفي أيام الثورة الفرنسية أم في أيامنا — تتألف من عناصر يجب تحليلها لإدراك شأنها.

يدلنا هذا التحليل على أن اليعقوبي معتقد غير متعقل، وأنه لا يؤسس معتقده على العقل، بل يسكب العقل في قالَب معتقده، وأن خطبه، وإن كانت مشبعة من العقليات، لا يسير عليها إلا قليلًا، ولو كان اليعقوبيّ يتعقل بنسبة ما يلام عليه من التعقل لأجاب نداء العقل في بعض الأحيان، وقد دلتنا المشاهدة، منذ عهد الثورة الفرنسية، على أن العقل مهما كان سديدًا لم يؤثر فيه قط، وهذا هو سر منعته، والسبب في عدم تأثير العقل فيه هو أن ما فيه من قِصر النظر لا يسمح له بمقاومة اندفاعاته العاطفية المسيِّرة له.

ولا تتألف النفسية اليعقوبية من هذين العنصرين — أي العقل الضعيف والعواطف القوية — وحدهما، بل تتألف من عنصر آخر أيضًا، فاليعقوبيّ الحقيقيّ ذو معتقد راسخ، والعاطفة تدعم المعتقد ولا تنشئه، فما ركن هذا المعتقد؟ هنا يبدو لنا عنصر التدين الذي بحثنا فيه سابقًا، فاليعقوبي متدين أقام مقام آلهته القديمة آلهةً جديدة، أي بما أنه كان للألفاظ والصيغ سلطان قوي على نفسه فإنه يعزو إليها قوة إلهية، ولا يتأخر في سبيل خدمة هذه الآلهة الكثيرة الطلب عن اقتراف أقسى الأعمال، والدليل على ذلك ما سنَّه اليعاقبة في الوقت الحاضر من القوانين.

وتظهر النفسية اليعقوبية عند ذوي الخلق الضيق الحمس على الخصوص، وتتضمن هذه النفسية فكرًا قاصرًا عنيدًا لا يؤثر النقد فيه، وما تغلَّب على الروح

اليعقوبية من التدين والعاطفة يجعل اليعقوبي كثير السذاجة، وهو لعدم إدراكه من الأمور غير علاقاتها الظاهرة يظن أن ما يساوره من الصور الوهمية حقائق ويفوته ارتباط الحوادث فلا يتحول عن خياله أبدًا.

إذن، لا يقترف اليعقوبي الآثام لرقي منطقه العقليَ، وإنما يسير لضعف عقله معتقدًا مندفعًا إلى حيث يتردد الرجل ذو المدارك السامية فيقف، وهو — كسائر المعتقدين — عاجز عن الخروج من دائرة المعتقد.

ويشبه اليعقوبي — بصفته اللاهوتية المكافحة المناجزة — أنصار كالڤن الذين قلنا في فصل سابق إنهم لم يثنهم شيءٌ عن إيمانهم الذي نوّمهم، وإنهم رأوا كل من يخالفهم في معتقدهم جديرا بالموت، فقد كان أولئك الأنصار المتعقلون كاليعاقبة جاهلين ما يسيِّرهم من القُوى الخفية ظانِّين أن العقل رائدهم مع أن الذي قادهم هو خلقُ التدين وعنصر الحماسة.

يتعذر علينا اكتناه اليعقوبيَ بقولنا إنه متعقل، ولا ينفعنا ذلك إلا في القنوط من العقل، وأما إذا قلنا إنه حَمِسٌ متدينٌ تيسرت لنا معرفة أمره.

وهذه الأمور الثلاثة — أي العقل الضعيف والحماسة الشديدة والتدين القويّ — هي عناصر الروح اليعقوبية.

الفصل الثالث

النفسية الثورية والنفسية المجرمة

(ا) النفسية الثورية

قلنا إن عنصر التدين هو من عناصر الروح اليعقوبية، وهذا العنصر من مقوِّمات نفسية أخرى، أي النفسية الثورية.

تشتمل المجتمعات في كل زمن على عدد من النفوس المضطربة المتقلبة الساخطة المتأهبة للتمرد الراغبة في الفتنة للفتنة نفسها، ولو أن قوة سحرية حققت آمالها بلا قيد ولا شرط ما عدلت عن التمرد.

وتنشأ هذه النفسية في الغالب عن عدم الامتزاج بالبيئة، أو عن الغلو في التدين أو المرض.

وللتمرد درجات مختلفة تبدأ من الاستياء الطفيف الذي ينحصر في كلام المرء عن الناس والأشياء وتنتهي إلى التخريب، وقد يصوب المرء صولته الثورية

أحيانًا نحو نفسه عند عجزه عن التصرف بها على طريقة أخرى، فلقد كثر في روسية عدد المجانين الذين لم يكتفوا بالتحريق وإلقاء القنابل فتحولوا إلى البخع والانتحار.

ويسهل إغواء هؤلاء العصاة الذين أضلت بعض الوساوس نفوسهم الدينية، فهم على رغم العزيمة الظاهرة التي تدلُّ عليها أعمالهم ضعفاءُ عاجزون عن مقاومة أقلِّ المحرضات، والقوانين والبيئة تردعهم في الأوقات العادية فيظلون غير مؤثرين، ولكن متى بدت أدوار الفتن فإن هذه الزواجر تضعف، فيطلقون عنان غرائزهم غير مبالين بالغاية التي نشبت الثورة من أجلها.

وقد تكون الروح الثورية غير خطرة، فهي إذا صدرت عن العقل، بدلًا من العاطفة أو التدين، أصبحت عامل تقدم وارتقاء، فعندما يصير حكم التقاليد والعادة ثقيلًا على الحضارة تتخلص منه بفضل أناس من ذوي العقول المستقلة الثورية كغَليله ولافوازيه وداروين وپاستور الذين أعانوا على تقدم العلوم والفنون والصناعة في العالم.

ويجب أن يكون في كل أمة عدد من هؤلاء الأعاظم الذين لولاهم لظل الإنسان عائشًا في الكهوف، وتتطلب الجرأة الثورية التي تُظهِر ما عند صاحبها من الاكتشافات استقلالًا ذهنيًا يتخلص به من الأفكار الجارية بين الناس، وحصافةً يدرك بها ما تحت المتشابهات السطحية من الحقائق.

(٢) النفسية المجرمة

قُدِّر على المجتمعات المتمدنة كلها أن تشتمل على جماعة من المنحطين وشذاذ الآفاق والمذنبين والأشرار واللصوص والقتلة الذين يتألف منهم فريق المدن الكبيرة المحرم، والوازعون لهم أيام السلم إنما هم الشَّرَط، أي رجال البوليس، ولكن لا رادع لهم أيام الثورات، فيسهل عليهم فيها أن يقتلوا ويسلبوا، ومنهم يجمع رجال الثورة جنودهم، وهم — لعدم طمعهم في غير القتل والنهب — لا يبالون بالغاية التي يدافعون عنها ولا يتأخرون ساعة عن الانضمام إلى الحزب المتقهقر حينما يكون حظهم من القتل والسلب عنده أكثر.

ويضاف إلى هؤلاء المجرمين الذين هم داءَ المجتمعات العضال، الفريق الذي يأتي المنكر وقتما يستحوذ عليه الخوف من النظام السائد والذي لا يلبث أن ينضم إلى زمر العصاة حينما يعتري هذا النظام وهن، ويتألف من هذين الفريقين جحفل مخل بالنظام، وعليه يعتمد الثوريون والقائمون بالفتن الدينية والسياسية.

قلنا في فصل آخر إن هذه الفئة المجرمة كانت عظيمة النفوذ أيام الثورة الفرنسية، وقد قص علينا بعض المؤرخين — وهم خاشعون — خبر الأوامر التي كانت تحملها إلى مجلس العهد وهي مسلحة بحراب على رؤوسها هامات مقطوعة، ولو بحثنا عن العناصر التي كانت تتألف منها هذه الفئة التي ادعت أنها وكيلة

الشعب لرأينا أن أكثريتها من اللصوص والأشرار وأن أقليتها من ذوي النفوس الساذجة الذين يسيرون حسبما يحرضهم الزعماء، وإلى أولئك اللصوص والأشرار تُعْزَى المذابح الكثيرة كمذابح شهر سبتمبر وقتل الأميرة لانبال.

حقًّا إنها أرهبت جميع المجالس التي قامت منذ المجلس التأسيسي حتى مجلس العهد وعاثت في فرنسة مدة عشر سنين، ولو أن معجزة قضت عليها لكان سير الثورة الفرنسية غير ما وقع، فقد ضرّجتها بالدماء منذ فجرها حتى غروبها، وليس للعقل سلطان عليها، وهي للعقل من القاهرين.

الفصل الرابع

روح الجماعات الثورية

(ا) صفات الجماعة العامة

لا تأتي الثورات — مهما كان مصدرها — بشتى النتائج إلا بعد دخولها في نفوس الجماعات، وهي لهذا السبب تعتبر نتيجة روح الجماعات.

ومع أنني بحثت مطولًا في كتاب آخر عن روح الجماعات فإن الضرورة تقضي علي بأن أذكر هنا سننها الأساسية، وعلى ذلك أقول:

إن المرء — وهو جزء من الجماعة — يختلف جدًّا عنه وهو منفرد، فشخصيته الشاعرة تفنى في شخصية الجماعة غير الشاعرة، وليس من الضروري أن يتصل المرءِ بالجماعة اتصالًا ماديًّا ليكتسب نفسية الجماعة، بل يكفي في الغالب، لتكوين هذه النفسية ما ينشأ عن بعض الحوادث من الانفعالات والمشاعر العامة.

ولروح الجماعة التي تظهر وقتيًا مزاج خاص يتصف بتغلب اللاشعور الخاضع لأحكام منطق خاص يسمى منطق الجماعات.

ونعد من الأوصاف الأخرى للجماعات غلوها في سرعة التصديق وسرعة الانفعال وعدم التبصر وعجزها عن التأثر بالمعقول، فلا يمكن إقناعها إلا بالتوكيد والعدوى والتكرار والنفوذ، وليس للحقائق والتجارب تأثير فيها، ويمكن حملها على تصديق كل شيء لعدم وجود ما هو مستحيل عندها.

وما تتصف به الجماعات من سرعة التأثر والانفعال يجعلها مفرطة في مشاعرها التي تكون ضارة أو نافعة، ويعظم هذا الإفراط في أيام الثورة، فأقل تحريض يدفع الجماعات وقتئذ إلى القيام بأقسى الأعمال، ويزيد في الثورات أيضًا ما تتصف به الجماعات في الأحوال العادية من سرعة التصديق فتعتقد صحة ما لا يمكن تصديقه من الأقاصيص، ومن ذلك رواية أرثور يانغ أن الشعب قبض، عندما كان يزور أيام الثورة الفرنسية المنابع القريبة من كلرمون، على دليله لاعتقاده أنه جاء لينسف المدينة كما أمرته الملكة، ثم أخذ الناس، بعد ذلك، يتناقلون أشنع الأحاديث عن بيت الملك عادِّين إياه من الغيلان والعفاريت.

والإنسان، وهو جزء من الجماعة، يهبط كثيراً من سلم الحضارة فتصدر عنه عيوب الشراسة ومزاياها، أي

أنواع الظلم والاستبداد وأنواع الحماسة والبطولة، فالجماعة وإن كانت من الجهة العقلية أدنى من الرجل المنفرد قد تكون أسمى منه شعوراً وخلقًا، ويسهل عليها أن تقترف إثمًا كما يسهل عليها أن تضحي بنفسها.

وتتلاشى الأخلاق الشخصية في الجماعات لما لها من التأثير في أفرادها، فيصيح فيها البخيل متلافًا والملحد معتقدًا والصالح مجرمًا والنذل بطلًا، وما أكثر أمثلة هذه التحولات أيام الثورة الفرنسية.

والإنسان يبدي، وهو مجتمع، سواء أمن المحلفين كان أم من أعضاء البرلمان، ما لا يخطر بباله وهو منفرد من حكم في قضية أو رأي في قانون.

ومن أهم النتائج التي تنشأ عن تأثير الجماعة في أفرادها: توحيد مشاعرهم وعزائمهم، ومن هذه الوحدة النفسية تكتسب الجماعات قوة عظيمة، والباعث على تكوين هذه الوحدة النفسية هو انتشار المشاعر والحركات والأعمال بين الجماعة بالعدوى على الخصوص.

وكيف تحدث تلك الإرادة والمشاعر المشتركة؟ إنها تحدث بالعدوى، ولكن تكوين هذه العدوى يتطلب مصدراً، وهذا المصدر هو الزعيم الذي سنتكلم، قريبًا، عن تأثيره في الحركات الثورية، فالجماعة بلا زعيم تعجز عن السير والحركة.

ويجب الاطلاع على سنن روح الجماعات؛ لتفسير حوادث الثورة الفرنسية، وإدراك سير المجالس الثورية وتطور أعضائها، وبما أن القوى اللاشعورية كانت دافعة لهؤلاء الأعضاء فإنهم كانوا يقولون ويفعلون في الغالب خلاف ما كانوا يريدون.

ومع أن فريقًا من أقطاب السياسة أدرك سنن روح الجماعات نرى أكثر الحكومات قد جهل أمرها، ولا يزال يجهله، وقد سهل هذا الجهل سقوط أكثر الحكومات، وتتضح الأخطار الناشئة عن جهل روح الجماعات عند الاطلاع على السهولة التي أسقطت بها فتنة صغيرة بعض أولياء الأمور، ولا سيما لويس فيليپ، فقد جهل القائد الذي كان يقود سنة ١٨٤٨، جنودًا كافية للدفاع عن ذلك الملك أن اختلاط الجماعة بالجند يؤدي بالتلقين والعدوى إلى شلل هؤلاء وعدم قيامهم بواجباتهم، فنشأ عن هذا الجهل خلع مليكه.

(٢) كيف تحدد روح العرق تقلبات الجماعات

يمكن تشبيه الشعب بالجماعة؛ لأنه يتصف ببعض صفاتها، إلا أن روح العرق الذي ينتمي إليه الشعب يحدد تقلبات هذه الصفات، ففي روح العرق ثبات لا عهد لروح الجماعة المتقلبة بمثله.

ومتى حصلت للشعب روح وراثية مستقرة مع الزمن تتغلب هذه الروح على روح الجماعة.

ويظهر الشعب — أحيانًا — كالجماعة بمظهر المتقلب، ولكن لنعلم أن وراء تقلبه وحماسته ومظالمه وهدمه غرائز ثابتة متأصلة تدعمها روح العرق، وقد أثبت تاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ القرن الذي بعدها كيف تتغلب الروح الثابتة على روح التخريب في نهاية الأمر، وما أكثر المرات التي جدد فيها الشعب حالًا بناء ما هدمه من الأنظمة!

ولا يسهل التأثير في روح الشعب كما يسهل في روح الجماعات، فوسائل التأثير في روح الشعب تسير معوجة بطيئة كالجرائد والمحاضرات والخطب والكتب، ويمكن ردها إلى العناصر التي وصفناها سابقًا وهي: التوكيد والتكرار والنفوذ والعدوى.

وقد تنال العدوى النفسية شعبًا بأسره فجأة، ولكنها لا تسري في الغالب من فريق إلى آخر إلا بالتدريج، فهكذا انتشر الإصلاح الديني في فرنسة، والشعب، وإن كان يهيج أقل من الجماعة، قد تثيره بغتة بعض الحوادث كشتمه وتهديده بالغزو، وقد شوهد ذلك غير مرة أيام الثورة الفرنسية، ولا سيما حين توعد دوك دوبر نسويك الأمة الفرنسية جاهلًا نفسيتها، فهذا الدوك لم يضر بذلك لويس السادس عشر وحده، بل أضر نفسه؛ إذ أوجب سوق جيش لمقاتلته.

ويشاهد انفجار المشاعر فجأة في الأمم كلها، ولم يدرك ناپليون قوة هذه المشاعر وقتما أغار على إسبانية وروسية، وذلك أن الفلاح الروسي الذي كان خشناً سخيفًا تحولت صفاته حينما شعر بغارة ناپليون، ويمكن استجلاء ذلك من العبارة الآتية التي نقتطفها من رسالة زوجة القيصر إسكندر الأول، إليزابيت، وإليكها:

لقد اشتعلت قلوب الروس حينما جاوز ناپليون حدودنا، وكان ذلك الشعور ينمو كلما أوغل ناپليون في البلاد، وصار الشيوخ الذين أضاعوا أموالهم يقولون: سنجد ما نسدُّ به خَلَّتنا، وكل شيء أفضل عندنا من صلح مخزٍ، وأصبحت النساء اللاتي لهنَّ أزواج في الجيش لا ينظرن إلى ما يحيق بهم من الأخطار ولا يخشين إلا الصلح الذي هو قضاء على روسية بالموت، وكل ذلك لم يخطر ببال القيصر، ولو أراده القيصر لم يقدر عليه.

وقد قصَّت الإمبراطورة إليزابيت المذكورة على والدتها الأمرين الآتيين اللذين يستدل بهما على درجة ما في نفوس الروس من المقاومة، قالت إليزابيت:

استخدم الفرنسيون في موسكو بعض الفلاحين في جيشهم ووسموهم في أيديهم كما تُوسمُ الخيل لكيلا يفرّوا، وقد سأل أحدهم عن هذه السمة فقيل له إنها تدل على أنه جندي فرنسي فصرخ قائلًا: يا عجبًا أأكون من جنود إمبراطور فرنسة! ثم أخذ فأسًا وقطع بها يده ورماها على أرجل الحضور قائلًا: خذوا سمتكم هذه!

وقبض الفرنسيون في موسكو على عشرين فلاحًا لخطفهم بعض الفرنسين، فصفوهم وقرأوا عليهم حكم القتل باللغة الروسية، وكان الفرنسيون ينتظرون أن يطلبوا العفو، ولكنهم بدلًا من ذلك طلبوا إليهم أن يمهلوهم ليصَلِّبُوا، ثم قتلوا الأول بالرصاص منتظرين أن يخاف الآخرون فيسألوا العفو ويعِدوا بتحسين سلوكهم، ثم قتلوا الثاني والثالث ومن بقيَ من العشرين بالرصاص من غير أن يستمطر واحد منهم رحمة العدو.

وتكون الروح الشعبية مشبعة من خلق التدين، فالشعب يعتقد وجود كائنات علوية، كالآلهة والحكومات وأعاظم الرجال، قادرة على تحويل الأمور كما تريد، ويورث هذا الخلق عند الشعب ميلًا شديدًا إلى العبادة فيحتاج إلى معبود سواء أرجلًا كان أم مذهبا، وعندما تخيفه الفوضى يتطلب مسيحًا منقذًا.

والشعوب تنتقل كالجماعات من العبادة إلى الحقد، إلَّا أن انتقالها هذا يقع بالتدريج في الغالب، فقد تلعن اليوم من عبدته أمس، ويشاهد هذا الانتقال في مختلف البلدان، كما دلَّ على ذلك تاريخ كروميل الذي أسقط أسْرَةً مالكة ورفض تاج الملك، فكروميل الذي دُفِنَ كما يدفن الملوك لم يمض على موته سنتان حتى انتُزع جسده من قبره وقطع الجلاد رأسه معلقًا إياه على باب البرلمان.

(٣) شأن الزعماء في الحركات الثورية

ذكرنا أن الجماعات والمجالس والأمم والأندية تعجز عن السير حينما تكون عاطلة من سيد يقودها، وبينتُ في كتاب آخر — مستعينًا بعلم وظائف الأعضاء — أن روح الجماعة اللاشاعرة ترتبط بروح زعيمها، فهو الذي يمنحها إرادة واحدة ويُلزمها الطاعة المطلقة.

يؤثر الزعيم في الجماعة بالتلقين على الخصوص، ويتوقف نجاحه على طريقة تلقينه، وقد أثبتت التجارب الكثيرة أن تلقين الجماعة سهل جدًّا.

والجماعة تكون بحسب أنواع التلقين، هادئة أو هائجة أو مجرمة أو باسلة مغامرة، وهذه الأحوال، وإن جاز أن تكون ذات مظهر عقلي، ليس فيها من العقل سوى الظاهر، فالمشاعر والخيالات هي التي تؤثر في الجماعة، ولا تتأثر الجماعة بالمعقول أبدًا.

ويدلنا تاريخ الثورة الفرنسية على سهولة اتباع الجماعات ما يأتي به الزعماء من التحريض المتناقض، فهي قد هتفت لفوز الجيروندِيين والإيبريين والدانتونيين ورجال الهول كما هتفت لسقوطهم.

والزعماء لسيرهم سرًّا، لا يلاحظ شأنهم بعد تقادم العهد إلا بصورة مبهمة، فيجب لاستجلاء هذا الشأن أن يبحث عنه في الحوادث الحديثة التي تثبت سهولة تحريك الزعماء للناس، ولا نشير هنا إلى اعتصابات

موظفي البريد والمعدنين التي قد يقال إن سببها هو استياؤهم، بل نشير إلى الحوادث التي لا منفعة للجماعة فيها، كالهرج الذي أوجبه بعض زعماء الاشتراكية في باريس يوم أُعدمٍ في إسبانية الفوضويّ فيرير الذي لم يسمع الناس شيئًا عنه في فرنسة، فقد كفى تحريض بعض الزعماء في باريس لسوق جيش شعبي إلى السفارة الإسبانية بقصد إحراقها، ولما دُفع المهاجمون عنها اقتصروا على تخريب بعض المخازن لإنشاء بضعة متاريس.

وقد أتى الزعماء في ذلك الحين دليلًا آخر على تأثيرهم، فلما أحسوا أن حرق سفارة أجنبية أمر خطأ أشاروا على الجماعة في يوم آخر بإقامة مظاهرة سلمية فأطاعتهم كما فعلت وقتما أمروها بالتمرد، ولا شيء أحسن من هذا المثال لإثبات شأن الزعماء وإطاعة الجماعات.

الفصل الخامس

روح المجالس الثورية

(١) صفات المجالس الثورية الكبرى

المجلس السياسي الكبير، كالبرلمان، جماعةٌ، ويكون فعل هذه الجماعة قليلًا حينما تتناقض مشاعر أحزابها، وقد تعتبر هذه الأحزاب ذات المنافع المختلفة مجلسًا ذا جماعات متباينة خاضعة لزعمائها، وحينئذ لا يتجلى ناموس الوحدة النفسية للجماعات إلا في كل حزب على حدته، والأحوال الاستثنائية وحدها هي التي تجمع بين عزائم تلك الأحزاب.

ولكل من أحزاب المجلس كيان يفنى فيه رجالُهُ، فيستصوبون في المجلس ما لا يعتقدونه وما لا يريدونه، فقد أبدى فرنيو استياءه من اقتراح الحكم بالموت على لويس السادس عشر، ولكنه استحسن ذلك الاقتراح في اليوم التالي.

ويستطيع ذوو النفوذ من الزعماء أن يؤثروا، أحيانًا، في أحزاب المجلس كلها، فيؤلفوا منها جماعة

واحدة، ومن ذلك تأثير عدد قليل من الزعماء في أعضاء مجلس العهد وجعلهم يأتون أعمالًا تناقض آراءهم.

أذعنت الجماعات في كل زمن للزعماء الأشداء، فأثبت لنا تاريخ المجالس الثورية مقدار خوف هذه المجالس من زعماء الفتن مع سَلْقها الملوك بألسنة حدَاد، فكانت تستحسن في جلسة واحدَة أكثر الأمور مناَقضة للمعقول خشيةً من الزعماء الجبارين.

وعندما يكسب المجلس صفات الجماعة يصبح مثلها ذا مشاعر متطرفة، أي إنه قد يصير مسرفًا في قوته كما أنه قد يصير مسرفًا في جُبْنِه، ويكون عاتيا أمام الضعفاء ذليلًا أمام الأقوياء.

فكلٌّ يعلم درجة الخوف الذي استحوذ على البرلمان وقتما دخل عليه الشاب لويس الرابع عشر و السوط بيده، ليلقيَ خُطبته، وكلٌّ يعلم درجة الوقاحة التي أتاها المجلس التأسيسي تجاه لويس السادس عشر حينما كان هذا الملك يشعر بضعفه، وليس ذعر مجلس العهد من روبسپير بأمر مجهول.

صفات تلك المجالس سُنَّةٌ عامّةٌ، فمن الخطأ العظيم أن يدعوَ الملك — عندما تَهِن قوته — مجلسًا للاجتماع، فقد أدى اجتماع مجلس النواب إلى إعدام لويس السادس عشر، وفقدِ هنري الثالث عرشه عندما غادر باريس وجمع مجلسًا نيابيا في بلوا، فعندما شعر

هذا المجلس بضعف الملك عَدَّ نفسه سيدًا فغَيّر الضرائب وعزل الموظفين وادعى أن لقراراته ما للقانون من القوة.

وشوهد غُلُوّ المشاعر في مجالس الثورة الفرنسية كلها، فبعد أن انتحل المجلس التأسيسي السيادة بالتدريج أعلن أنه هو الحاكم، واعتبر لويس السادس عشر موظفًا بسيطًا، ثم جاء مجلس العهد فكان في بدء الأمر معتدلًا، ثم أفرط في إظهار سلطانه فسنَّ قانونًا حرمَ به المتهمين حقَّ الدفاع عن أنفسهم وأجاز الحكم عليهم بالشبهات، وقد أدى إمعانه في سفك الدماء إلى اقتتال أعضائه فقتل الجلاد الجيروندیين ثم الإيبريين ثم الدانتونيين ثم الروبسپيريين.

وسرعة التقلب في مشاعر المجالس توضح لنا علة إتيانها نتائج مخالفة لمقاصدها، فقد ساق المجلس التأسيسي المؤلف من الحزب الكاثوليكي والحزب الملكي فرنسة إلى جمهورية مستبدة بدلًا من الملكية الدستورية التي كان يريد إقامتها، كما ساقها إلى اضطهاد الإكليروس بدلًا من إعلاء شأن الديانة التي كان يَوَدَّ الدفاع عنها.

(٢) روح الأندية السياسية

تختلف الجمعيات الصغيرة، ذات الآراء والمعتقدات والمنافع الواحدة، عن المجالس الكبيرة بوحدة مشاعرها وعزائمها، ومن هذه الجمعيات الصغيرة نذكر المجالس الدينية وطوائف المحترفين في العهد السابق والأندية أيام الثورة الفرنسية والجمعيات السرية في

النصف الأول من القرن التاسع عشر ومحافل الماسون ونقابات العمال في الوقت الحاضر.

ويُقتضَى، لإدراك سير الثورة الفرنسية، أن يُبحث عن الفرق بين المجلس المتخالف والنادي المتجانس، فالأندية هي التي سيطرت على الثورة الفرنسية حتى عهد الديركتوار، وقد كانت هذه السيطرة شديدة في دور العهد كما هو معلوم.

وتخضع الأندية لنواميس روح الجماعات على رغم وَحدة عزائمها الناشئة عن فقدان الأحزاب فيها، فهي تستكين للزعماء كما شوهد في النادي اليعقوبي الذي كان يقوده روبسپير.

ويكون تأثير الزعيم في النادي — أي في الجماعة المتجانسة — أصعب مما في الجماعة المتباينة، فلكي تسير الجماعة المتخالفة يكفي أن يهتزّ عدد قليل من أوتارها، وأما الجماعة المتجانسة — كالنادي مثلًا — حيث تكون المشاعر والمنافع واحدة فيجب لسوقها مداراة هذه المشاعر والمنافع، وبهذا قد يصبح الزعيم مرؤوسًا.

وللجماعات المتجانسة قوةٌ عظيمة في خفائها، فقد كفى أيام الكومون أي سنة ١٨٧١، بضعة أوامر خفية لإحراق أجمل أبنية باريس كدار البلدية وقصر التويلري وديوان المحاسبة وبيت جوقة الشرف، والمصادفة هي التي أنقذت وقتئذ قصر اللوڤر وما فيه من الآثار الفنية،

والآن يُصغى باحترام إلى الأوامر التي يصدرها زعماء العمال المستترون على رغم مخالفتها للصواب، ولم يكن الانقياد لأندية باريس وللجمعية الثورية المتمردة أقل من ذلك أيام الثورة الفرنسية، فكانت — بأمر واحد منها — تسوق رعاعًا مسلحين إلى المجلس الاشتراعي لإملاء مطالبها عليه، وسنرى، عند بحثنا في تاريخ مجلس العهد، وقوع مثل هذه الغارات كثيراً وانقياد هذا المجلس، الذي وصفته الأقاصيص بشدة البأس، لأوامر عصابة من الغوغاء.

تدلنا الملاحظات السابقة على ما لروح الجماعة من التأثير في إدارة أعضائها، فإذا كانت الجماعة متجانسة كان هذا التأثير عظيمًا، وإلا كان أقلَّ من ذلك، وقد يصبح عظيمًا لتغلب الجماعات النافذة في المجلس المتخالف على الجماعات الضعيفة الالتحام أو لانتشار بعض المشاعر بالعدوى بين أعضاء هذا المجلس.

وأحسنُ مثال نورده على تأثير الجماعات هو القر ار الذي تنزَّلَ فيه الأشراف عن امتيازاتهم الإقطاعية في الليلة الرابعة من شهر أغسطس (أيام الثورة الفرنسية)، وسبب ذلك أن الناس وهم في الجماعة غيرهم وهم منفردون، فلو سئل كل شريف عن رأيه وهو منفرد لأجاب أنه لا يتنزل عن حقوقه أبدًا.

وقد أورد ناپليون، وهو في جزيرة القديسة هيلانة، أمثلة عجيبة على تأثير المجالس في أعضائها فقال:

«كنا نصادف في ذلك الوقت أشخاصًا كانوا يسيرون على غير ما سُمع عنهم، خذ مونج مثلًا ترَ أنه صعد في منبرِ اليعاقبة لما اختيرت الحرب وصرح بأنه يهب ابنتيه مقدمًا للجنديين الأولين اللذين يجرحهما العدوّ، وكان يود أن يقتل جميع الأشراف، مع أنه كان من أكثر الناس دماثة وأشدهم ضعفًا، ولو اضطر إلى ذبح فروجة ما فعل ذلك وما سمح لأحد أن يفعله أمامه».

(٣) اشتداد المشاعر التدريجي في المجالس

لو أمكننا أن نقيس بعض مشاعر الجماعات ببعض قياسًا رياضيًا لاستطعنا أن نرسمها على خط منحنٍ يصعد من طرفه الأول ببطء ثم بسرعة ثم يهبط إلى طرفه الثاني عموديًّا، ويمكن أن تسمى هذه المعادلة معادلة تحوّل مشاعر الجماعات المحرضة تحريضًا مستمرًّا.

ولو كانت سنن علم النفس مشابهة لسنن الميكانيكا لجاز لنا أن نعتبر أن علة ثابتة المقدار مستمرة التأثير تزيد المشاعر سرعة، فمن المعلوم أن قوة ذات مقدار ثابت واتجاه مستمر كالجاذبية المؤثرة في أحد الأجرام تحدث في الجرم حركة زائدة السرعة فتكون سرعة الجِرم الساقط في الفضاء بتأثير الجاذبية عشرة أمتار في الثانية الأولى وعشرين مترًا في الثانية التالية وثلاثين مترًا في الثانية الثالثة.

غير أن هذا المقياس الذي قد تقاس به سرعة المشاعر التابعة لمؤثرات مستمرة لا يوضح لنا سبب توقف هذه المؤثرات بغتة عن التأثير، ويمكن إدراك هذا التوقف بقياسه على سُنن وظائف الأعضاء، فمن قواعد علم وظائف الأعضاء أن للذة والألم حُدودًا لا يمكن تعدِّيها، وأنه ينشأ عن كل تشديد على الأعضاء شلل في الحس، وأن أعضاءنا لا تحتمل غير مقدار محدود من الفرح والألم والمجهود، وأن اليد التي تشدد على مقياس القوة لا تلبث أن تستنفد قوتها فتضطر فجأة إلى الكف عن إمساكه.

ويجب، في البحث عن علة اختفاء بعض المشاعر بغتة في المجالس، أن نسلِّم أيضًا بوجود أحزاب ذات مشاعر ردعتها قوة الحزب المتغلب عن النموِ، وقد تشتد مشاعر هذه الأحزاب عندما يضعُف الحزب المتغلب لسبب من الأسباب، وذلك كما وقع للمونتانيار بعد شهر ترميدور (الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية).

غوستاف لوبون

روح الثورات

في الكتاب رؤية عميقة لفلسفة الثورة من حيث كونها ظاهرة اجتماعية نابعة من نضج معرفي يتنامى بشكل لا شعوري، فنفذ الكتاب إلى ما يكمن وراء الضجة من أخلاق ومشاعر ورؤية الجماعات والخلايا الثورية؛ ففنَّد أطوار الثورة وما يعتريها من تقلبات داخل ضمير الأمة الثائرة متَّخذًا من الثورة الفرنسية عينة مجهرية؛ فكانت رؤيته التاريخية أكثر صدقًا وأنفذ بصيرة، حيث ناقش الثورة باعتبارها عقيدة في نفوس الثائرين قد تتآلف وتتنافر مع كثير من المبادئ الاجتماعية والعقائد الدينية.

ضفة للنشر
Dammah Publishing

كتبنا متوفرة على Telegram

t.me/DammahPublishing